

روايات مصرية الخيبي

أسطورة
وحش البحيرة



ماوراء الطبيعة



Looloo

www.dvd4arab.com

مقدمة ..

اسمى هو الدكتور (رفعت إسماعيل) .. مهنتى - قبل تقاعدى - هى أستاذ أمراض الدم بعدة جامعات فى أوربا وأمريكا، إلا أن هوايتى الأساسية هى صيد الأشباح .. مختاراً أو مجبراً وجدت نفسى ضيقاً غير مرغوب فيه فى عشرات المقابر والقصور والبيوت المسكونة .. وكان مضيفى إما مذبذبين أو أشباحاً، أو مصاصى دماء تلتهم أنيابهم الحادة فى الظلام !..

بالحق من حياة حافلة تلك التى عشتها !..

ترى ما الذى سأحكىه لكم اليوم؟! .. هل أحكى لكم صفقة الأرواح التى أبرمتها مع د. (لوسيفر) (الاسم اللاتينى للشيطان)؟ أم أحكى لكم مواجهتى للزومبي الخارج من قبره؟ أم أحكى لكم تجربة الدكتور (فرانكنشتاين)؟! .. أم أحكى لكم مواجهتى مع لعنة الفرعون (أخيروم الأول)؟! .. لا أدرى ..

إلى الذين فاتتهم قصصى السابقة أقول إنه قد فاتتهم لحظات مثيرة من التشويق والترقب، وإنى لأنصحهم أن يجدوها ويقرءوها، أما الذين طالعوا ما سبق فلهم أقول إننى



أسطورة وحش البحيرة

١ - ذكريات ..

نحن الآن في منتصف الليل ..

المكان : بجوار قلعة (إيركهارت) .. في قارب وسط
البحيرة .. والضباب البارد يغطو في خمول فوق صفحة
الماء الساكنة ، حتى لا يكاد يرى بعضنا وجوه البعض ..
القارب يتأرجح ..

الزمان : أواخر شهر يوليو من عام ١٩٦٤

الحدث : لقد قرر السير (جيمس ماكيلوب) أن يثبت
نظريته ..

في صمت ينظر إلى ساعته بعقاربها المضينة ، ثم ينظر
إلى - أو هكذا يخيل لي - وإلى (ماجي) وإلى (إيوان) ، ثم
يقول وهو يضغط على كل مقطع من حروف كلماته :
- لقد حان الوقت ..!.. تذكروا ياسادة .. لم يزل هناك
وقت للتراجع ..، أريد أن أسمع موافقتكم مرة أخرى ..
ثم إنه التفت لـ (ماجي) ، متسائلاً :
- (ماجي) ؟! ..
أصدرت (ماجي) همهمة مبهممة بمعنى استمر ..
ووضعت القلادة حول عنقها ..

إننى لم أنته بعد ..!.. لم تنزل ذاكرتى قوية عامرة بالأحداث
المروعة التى واجهتها فى عمرى المديد ..

والآن أعتقد أننى سأحكى لكم قصتى مع وحش بحيرة
(لوخ نم) الغامض .. وقد وقعت أحداثها - إن لم تخنى
الذاكرة - فى أواخر عام ١٩٦٤ .. نعم ..!.. هو كذلك ..
والآن أضيئوا الأنوار وأغلقوا الأبواب .. واقلبوا
الصفحة ..!

سأحكى مغامرتى مع وحش البحيرة .. فلا تقاطعونى ..

* * *

د - (إسماعيل) ؟ ..

كنت أعرف أن أبواب الجحيم ستفتح بعد دقائق .. وأن الله وحده يعلم ما ستطلع عليه شمس الغد .. لكنني كنت مسيرا في طريق لا أعلم إلام يقودني ، وقد اكتفيت بهز رأسي مشجعا له ..

- (فريزر) ؟ !

- أرجوك أن تستمر .

سعل السير (جيمس) في تودة ، ثم قال وهو يمد يده إلى جيبه :

- إن فليكن ما يكون .

وأخرج البوق العاجي من جيبه .. ونفخ فيه ..

* * *

ثمة قول قديم يقول إن كل كهف تحت بحيرات (اسكتلندا) يحوى وحشا خرافيا مرعبا (*). ولم أكن أعرف هذه العقولة في ذلك الوقت من عام ١٩٦٤ . وهذا هو قدرى .. بعد كل قصة من قصصى أكتشف أى أحق كنته بالأمس ، بل وأى ساذج كنت منذ لحظات .. وأحسب أنى وصلت ذروة الحكمة .. ثم أكتشف - فى مغامرتى التالية - أن هناك ذروة أخرى لم أعرف عنها شيئا على الإطلاق ..

(*) مقولة حقيقية .

ولكن .. كيف لم أفهم وقتها ، أننى حيث أذهب فهناك وحوش وشياطين .. ومادامت هناك وحوش وشياطين ، فإنى - لابد - ملاقيها ..!؟ هذا هو قدرى الذى لا ذنب لى فيه ولا فضل ..

لكنى - للمرة الألف - أعترف أنى كنت ساذجا ..

* * *

لم تكن تلك المرة الأولى التى أزور فيها (اسكتلندا) .. ولم تكن تلك المرة الأولى التى أدخل فيها جامعة (داندى) ..

فقد سبق لى أن جلت إلى هذا البلد فى فترة البعثة التى حصلت فيها على درجة الدكتوراه .. ولى فيه أصدقاء حميمون بالفعل ..

إن الاسكتلنديين إنجليز حقا ، لكنهم يختلفون كثيرا عن الإنجليزى الذى نعرفه ، فهم قوم شديدو اللطف والمودة ، خالون من البرود والتعالى وتغل الظل ، كما أنهم ليسوا ملتهبى المزاج كالإيرلنديين ..

فى جامعة (داندى) كانت لى حكايات طويلة باسمة ، وذكريات خفرت فى أعماقى إلى الأبد .. واليوم - بعد عشر سنوات تقريبا - أعود إلى أصدقاء الماضى الأعزاء .. (ماكنزى) و (مكارثر) و (مكديفيد) .

و (.....) لا أدري لماذا تبدأ كل ألقاب الاسكتلنديين
بـ (ماك) ولماذا يدعى أكثر من نصف رجالهم باسم
(أندرو)؟! .. ذكروني أن أسأل عن ذلك لو اتسع الوقت..!
المهم أنني قابلت أستاذي العظيم .. السير (جيمس
ماكيلوب)، وكنت منبهرا به إلى حد الجنون... شعره
الأشيب .. وسوالفه العجيبة .. وحاجبيه الكثين .. لطالما
كان يشعرني أنه أحد عمالقة الطب الذين نراهم في
المراجع الكبيرة، ويسبق اسمهم - دائما - لقب (سير) ..
ثم بساطته الودود، وإيماءاته الأنيقة المليئة بالكبرياء،
وتفكيره المنطقي .. كل هذا كان يجعلني أهيمن به كمرافقة
تهيم بأستاذها الوسيم ..
صافحنى في حرارة .. وسرني أنه يذكرني بعد كل هذه
الأعوام.

- دكتور (إسماعيل) .. أليس كذلك؟!

ارتعشت زاوية فمي اليسرى وأنا أهمس بكياسة:

- نعم .. (رفعت) .. (رفعت إسماعيل) ..

- تلميذى الفاشل!

ابتسمت في حرج لمجاملته، ولم أعرف كيف أردّ!..

في حين استرسل:

- هانت ذا قد عدت لمصر، وافتتحت عبادة خاصة

تمتص فيها دماء الفلاحين البؤساء من أهل بلدك ..
ونسيت كل شيء عن البحث العلمى .. لا تنكر ذلك!
صحت في ذعر مقسما أن هذا لم يحدث، وأننى لم أمتلك
حتى هذه اللحظة سوى شقتى بالقاهرة، وأننى لم أتغير
أبدا ..

- إذن لماذا كلفت عن حضور مؤتمرات لندن؟!

هل أخبره بالسبب الذى قد يكون سخيفا في رأيه؟! ..
للحظة لم أدر كيف أشرح له، إلا أنه باغتني بسؤال أكثر
دقة وإحراجا:

- هل هناك أخبار عن زميلنا د. (رتشارد كامنجر)؟!

ابتسمت في حرج، وقلت متظاهرا بالبراءة:

- لم أره منذ مؤتمر أمراض الدم في عام ١٩٥٩ ..

- هذا هو بيت القصيد ..

قالها في تشكك، وهو ينظر في عيني تلك النظرة
الثابتة، التى كان يمزق بها كل أكاذيبى وادعاءاتى في
الماضى، وأردف:

- إنه دعاك لبيته الريفى أيامها .. ثم .. لاشيء ..

لاخير عنه على الإطلاق سوى أنه سافر لأستراليا ..

استقال من عمله، وانقطعت كل مراسلاته، ولم يترك حتى

عنوانه لتتصل به .. فهل تعرف ما حدث وقتها؟!

لقد كنت أقربنا إليه وآخر من رآه ..

من الواضح أنني سأضطر إلى حكاية قصة مومياء الكونت (دراكويولا) . وتحول (كاترين) إلى مصاصة دماء - أو ما حاولت أن تقتننى به - وهربي في الظلام ، وكل ما هو كفييل بأن يجلب على سخرية هذا الأستاذ العظيم ، أو شكوكه في سلامة عقلي ، الواقع أنني دفنت هذه الذكرى المريرة في أعماق ذاكرتي ، وأهلت فوقها أظنانا من غبار المشاكل اليومية .. لا أريد لها أن تعود مرة أخرى لتتغص حياتي ..

قلت للسبير (جيمس) في غموض :

- إنها قصة طويلة ..

- إذن ستحكيها لي الليلة ..

- هنا ؟

- كلا .. إنني أدعوك إلى قصرى فى (إنفرنسشاير) كى نقضى نهاية الأسبوع . وهناك سنعضى ليلة رائعة تحكى لى فيها كل شىء ..! إن برنامجا حافلا ينتظرك .

حاولت التملص منه لأننى - بصراحة - لم أعد أستريح كثيرا إلى دعوات هؤلاء الأساتذة الإنجليز لى فى بيوتهم ... لقد كان (البرنامج الحافل) الذى أعده لى د. (رتشارد كامنجز) ، هو المبيت بجوار مومياء (دراكويولا) مع مصاصة دماء مراهقة . فأى (برنامج حافل) أعده لى هذا السيد ؟!

لكنه كان قاطعا فى دعوته ، ولم أكن أنا أملك أحشائى - كما يقول الإنجليز كناية عن الجرأة - كى أرفض هذه الدعوة .

- إن قصرى على مسافة خطوات من (لوخ نس) .. قالها وهو يغمز بعينه ، معتقدا أنني أعرف مغزى هذا الاسم الذى قاله ..

ولم أكن أعرف أى مغزى له ، ولم يلفت نظرى سوى حرف (الحاء) الذى نطقه فى قوة وثقة ، (والاسكتلنديون يستعملون حرف الخاء فى كلامهم بكثرة ، مما يعطى الأذن إحساسا غريبا) .. لهذا رددت وراءه :

- (لوخ نس) !؟ ..

- أعنى بحيرة (نس) .. أنت تعرف أن كل بحيرات (اسكتلندا) يبدأ اسمها بكلمة (لوخ) ما عدا بحيرة (منثيث) .. كلمة (لوخ) تعنى بحيرة ..

- فهمت ! .. إننى لأعرف الكثير عن (اسكتلندا) فى الواقع ..

قال وهو يتنهد :

- هذه هى مشكلتك .. لقد أمضيت هنا سنتين تدرس ، فلم تحاول - مجرد محاولة - أن تعرف شيئا عن البلد الذى تدرس فيه .. ألم يحن الوقت لذلك ..؟

٢ - إنفرنسسشاير ..

(ماجى) ستكون هناك! ..

الألغام تنفجر واحدا تلو الآخر فى بحر ذكرياتى ..
(ماجى) الهشة الرقيقة ، التى كانت تستطيع أن تسير
فوق العشب دون أن تثنى منه عودا واحدا! ... العيان
الزرقاوان الصريحتان البرينتان ، إلى حد إشعارك بأنك
شيطان! .. والشعر الذهبى الثائر ..

الأيدي المتعانقة فى شوارع أُنبرة .. والأحلام
الشابة .. ومحاولاتى الخرقاء كى أبدو لها رجلا محتفيا
و (جننتمان) ، ومحاولاتها الساذجة كى تبدو لى أنثى
غامضة تفهم الحياة .. ثم نلقى قناعينا ونضحك
كالأطفال ..

كانت (ماجى) هى ابنة السير جيمس الوحيدة ، وكانت
تدرس الفيزياء فى جامعة (داندى) حين التقينا ، وبشكل ما
أدركت أن أباهها لا يمانع فى علاقتنا إن لم يكن يشجعها ..
وتمر الأيام وتصل عواطفنا إلى الذروة التى ليس بعدها
سوى الهبوط! ..

انتهى موعد البعثة .. فقالت لى فى حنان :

- بلى .. ولكنى ..

هتف فى نفاذ صبر :

- كفاك أعذارا! ..، عليك أن ترتب أمورك ، وسنلتقى

هنا فى تمام الخامسة ... وتذكر ..

ثم نظر إلى نظرة ذات معنى :

- (ماجى) ستكون هناك!

★ ★ ★

- ابق هنا يا (رفعت) .. ابق معنا .. إن أبى سيدك لك
وظيفة محترمة في مستشفى .. وسنكون سعداء ..
قلت لها في رقة :

- تعالى معي يا (ماجى) .. إلى مصر .. إلى بلدى
المشمس الدافئ، وقومى الطبيين .. سنكون سعداء ..
- أنا لا أستطيع أن أترك دراستى وبلدى ..
- وأنا لا أستطيع أن أخذل بلدى التى أرسلتني فى هذه
البعثة .. ولن أترك أمى وأختى ..

وكانت مناقشات عقيمة طويلة ، توصلنا بعدها لاتفاق
هام ، هو ألا نتفق أبداً ..! .. وانفصلنا .. ولمدة عامين ظللنا
نتراسل ، ثم .. أنت تعرف كيف تحدث هذه الأمور .. لم أعد
أذكر من الذى توقف عن الكتابة أولاً ، لكننا توقفنا عن
الكتابة بالفعل .. لم يعد فى نفسى لها إلا أثر خافت ، كبقايا
قبة طفل رطبة على خدك .. سرعان ما تجف لكنها تترك
أثراً منعشاً فى روحك لفترة ما ..

(ماجى) سنكون هناك !..

وهناك - فى غرفة المائدة الفاخرة - قابلتها بعد كل هذه
الأعوام ..

- د . (رفعت) على ما اعتقد!

قالتها على سبيل الدعابة وهى تصافحني بتلك اليد

الباردة البهوية ، التى كنت أخشى أن أهشمها يوماً ...
انحذيت فى تكلف وغمغت :

- ممس (ماكيلوب) ..

لقد تغيرت كثيراً .. إنها اليوم - وهى على مشارف
الأربعين - أبعد ما تكون عن تلك المخلوقة الهشة التى
همت بها .. لقد صارت امرأة .. ولكم أثار هذا خيبة أملى ..
لكنى كنت على استعداد لأن أستعيد كل حب شعرت به
نحوها ، لو أنها برهنت لى أن روحها لم تتغير ... بالطبع
هى لم تتزوج بعد ، مادامت لم تعترض على مناداتى لها
بممس (ماكيلوب) ..

- أخشى أنك قد ازددت وسامة !..

- وأخشى أنك ازددت سحراً !..

جلست بجانبى على المائدة ، فى حين جلس السير
(جييمس) فى صدر المائدة ، وإلى يمينه سيدة حسناء فى
منتصف العمر ، قدمها لنا على أنها ممس (إليزابث جولد) ،
أرملة الكوماندور المرحوم (ر . ت . جولد) .. وعلى
يساره امرأة حادة النظرات أخبرنى أن اسمها (كونستانس
هوايت) ، وكان بجوارها زوجها .. وهو عجوز أصلع أخذ
برمقتى فى شك ..

كانت مائدة فاخرة ومنشأة جداً ، مما جعل ابتلاع أية



اقنادنا رئيس الخدم في كبرياء ، عبر دهليز طويل تحف به الصور الزيتية القديمة ، ودروع الفرسان الواقفة ممسكة برماحها ..

لقمة مجهوداً لا يستهان به ، وكانت (ماجى) ودوداً إلى حد مرعب ، وتثرثر طيلة الوقت ، لكنى كنت غارقاً فى مشاكلية الخاصة ، مع آداب العاندة كى لا أبدو لهؤلاء السادة المتحذلقين فظاً ومتوحشاً .. لهذا كنت أرد عليها بإيماءات متكللة معناها أن كلامها ممل جداً ..

وأخيراً انتهى العشاء ..

اقنادنا رئيس الخدم فى كبرياء ، عبر دهليز طويل تحف به الصور الزيتية القديمة ، ودروع الفرسان الواقفة ممسكة برماحها ، وعلى الجدار سجادة أثرية ، مرسوم عليها لقطات من تاريخ اسكتلندا ..

ذلك الجو الذى لا تستطيع أن تصدق أنه موجود بالفعل ، وأنت حقاً هناك .. لكنه يثير الخيال تماماً ..

اتحيت بجوار أذن رئيس الخدم .. وهمسرت له بما معناه :

- وحياة والدك قل لى :

- سيدى ..!

قالها من الأعماق وبلهجة راقية جداً ، وبكبرياء كأنه قد أهين ..

واصلت سؤالى :

- هل أنت واثق أنه لا يوجد أشباح فى هذا القصر !!

- سيدى ..!؟

- أعنى .. هل هذا القصر غير مسكون بشيخ اللورد فلان، أو الكونتيسة فلانة، وأنهم يخرجون - على سبيل المثال - عندما تدق الساعة معلنة منتصف الليل!؟
نظر لى فى حيرة ليتأكد ما إذا كنت معنوها .. ثم إنه شرع يضحك فى الفتعال:

- أها!.. إن السيد مزح!.. لم أكن أعرف أن السيد يجيد الدعابة ويحبها .. هى هى!..!
ثم إنه أشار إلى حجرة الجلوس، وهتف بطريقته المتعالية المتحفظة:

- والآن فليتفضل السادة بالجلوس ها هنا، فى حين تتناولون القهوة ..

إن سيدى سيلحق بكم حالاً!..

كان الجو مرخاً باسمًا فى غرفة الجلوس، خاصة ونسانم الصيف العذبة تداعب أحلامنا ..، وحين لحق بنا السير (جيمس) بدأت محاورات مسلية حول أشياء كثيرة لأنكرها ..

ثم إنه سألنى عن د. (رتشارد)، فشرعت أحكى له قصتى إياها .. أجدت الوصف وتصوير الجو، مما جعل

عيون الجالسين كلها تتسع رعباً، وهى تصفى لقصتى، وحين انتقلت إلى قصتى مع المذعوب فى رومانيا، ساد الصمت الغرفة وبدا أننى قد غزوت عقولهم تماماً، مما جعلنى ألتهب فخراً بنفسى ..، ثم إننى حكيت لهم قصة النداهة .. وكانت دهشتهم واستارتهم قد بلغت الذروة، مما جعلهم يطلقون صرخات انبهار ورعب، كلما تطورت أحداث قصتى ..

لقد ملكت ناصبة الحديث وانتصرت على رعبى الاجتماعى السابق، والذى كاد يفسد أمسىتى كلها ..
اقتربت منى مسز (جولد) وقالت وهى تضغط على حروفها:

- لقد قابلت أخطارا كثيرة ياد. (إسماعيل)، وإنك لرجل رائع بالفعل ..

قالت (ماجى) فى شء من الغيظ:

- أو مؤلف رائع!

نظرت إليها فى دهشة .. إنها تغار!.. حقاً تغار!..! إنى لم أزل أنا هناك أحياء .. فى قلبها .. إن اتهامها لى بالادعاء قد أنتج فؤادى كثيراً ..

حدقت فى عينها الزرقاوين بثبات .. وهمست:

- واعزىزتى .. أنت لم تتغيرى!

- ماذا تعنى؟!..

- اعنى أن كل رقتك تذوب وتتحول لشراسة النمرور،
بمجرد أن تشعرى أن خطرا يتهدد قلبك..

- أنت مغرور..!

- وأنت تحبيننى!..!

وهكذا.. لا أدرى كيف تعانق كفانا. وكيف ذابت العشر
سنوات فى دقائق.. وكيف خرجنا للشرفة نرمى الليل
الصافى.. حولنا مرتفعات اسكتلندا الشامخة، وأنسام الليل
تهمس لنا أسرارها، وتحفر اسمينا فوق صفحة مياه
البحيرة.. بحيرة (نس)..

ومن خلفنا - فى غرفة الجلوس - كان الآخرون
يثرثرون ويمزحون، وأدار أحدهم أسطوانة رقيقة على
جهاز الفونوغراف.. فانبعث صوت (تينوروسى) الرخيم،
يتغنى بالإيطالية عن شيء ما لا أدرى كنهه، لكن يتحدث
- بالتأكيد - عن مشاعرى.. ويصف خفقات قلبى فى تلك
اللحظة، كما لم أستطع أبدا أن أصفها..

- (ماجى).. أنا لا أعرف شيئا عن حياتى بدونك..
مجرد هراء طويل مرهق.. إننى إلى عينيك أنتمى..

- إذن ستيبقى معى للأبد..؟!..

- للأبد!..!

الأخ (تينوروسى) لم يزل يصف ما أحس به بكلمات
لا أفهمها.. وعيناها الزرقاوان تدمعان.. وهناك فى ظلام
الليل بدت لى ملامحها أكثر رقة.. وجهها القديم الرقيق
يُبعث من قبره.. و..

وهنا ارتجفت وتصنبت ملامحها.. ورأيته تنظر إلى
بعيد.. تجاه مياه البحيرة..

- (ماجى)..؟!.. هل ثمة شيء؟

أشارت إلى اتجاه نظرها.. وهتفت:

- قل لى.. هل ترى شيئا ما يتحرك فوق سطح

البحيرة؟ أم أن عيني تخدعانى..؟

نظرت باتجاه إصبعها إلى مياه البحيرة الملمعة فى
ضوء النجوم، والتي تحركها الأنسام.. لاشيء هناك..
ولكن.. بالفعل.. هناك شيء أسود غريب - كصخرة
لمساء - يتحرك فى تودة فوق الماء.. أحيانا يعلو، وأحيانا
يهبط، لكنه يحافظ على اتجاهه المنتظم تجاه ضفة
البحيرة..

قلت وأنا أضيق عيني محاولاً أن أرى أكثر:

- إنها قطعة خشب طافية..

قالت وهى تبتلع ريقها بصوت مسموع:

- كلا.. أنت لا تفهم..

كنت أنا واقفاً كالأبلة لأفهم أى شيء على الإطلاق ..
لهذا تنحنحت وسألت فى كياسة :

- ما هو (نيسى) !؟

نظر إلى سير (جيمس) لوهلة فظننت أنه سيرد على ..
لكنه كان شارد الذهن ، فلم يعبأ بسؤالى ، إنما التفت إلى
مسز (جولد) وسألها :

- هل تظنين أنهم رأوه فى (إيركهارت) ..؟

- لا أعتقد ..

هرش رأسه فى حيرة .. ثم غمغم :

- ولكن اليوم هو السابع عشر من يوليو .. ثمة خطأ ما
فى حساباتى ..

- ما هو (نيسى) ؟

نظرت إلى (ماجى) فى ضيق .. وعادت تتبادل حديثاً
هامساً مع مسز هوايت .

- (ماجى) .. ما هو (نيسى) ..؟

قالت وهى تنتظر إلى بعيد ، وقد انعكس بريق النجوم
على مقلتيها :

- إنه اسم التديل الذى نطلقه فى اسكتلندا على وحش

(لوخ نم) !!

ثم إنها انفلتت من ذراعى - وسط عدم فهمى للأمر
كله - ووقفت على باب الشرفة تتأدى أباهما من الداخل ..
- دادى ..! .. إنه (نيسى) ..!

(نيسى) ..؟ عم تتحدث هذه الفتاة ..؟ وما ذنبى فى هذه
اللحظة الفارقة من مصيدة الزمن . كى يخرج لى هذا الأخ
(نيسى) أيا ما كان كنهه ؟

خرج المسير (جيمس) كالمسوع من الغرفة ، وقد تكلى
سيجار غليظ من شفتيه .. وهتف من بين أسنانه :

- كلا .. ليس فى هذا الوقت !.. مستحيل !

صاحت (ماجى) فى ثقة :

- تعال وانظر بنفسك !

نظر المسير (جيمس) إلى البحيرة للحظة ، ثم تمتع :
- ولكن .. بحق السماء هذا صحيح !.. قولى
لـ (جراهام) أن يحضر الكاميرا وعدسة الزووم ..

قالت مسز (هوايت) ، وكانت قد دخلت الشرفة مع
الأخرين :

- لاجدوى .. لن يستطيع الفلاش أن يضىء كل هذه
المسافة ..

واقفاً سير (جيمس) فى ضيق .. ثم عاد يرمق
المشهد ..

٣ - أسطورة وحش البحيرة..

- إن الخسوف القمري قد أدى لحجب البدر هذه الليلة..
هذا هو التفسير ..

كنا جالسين في قاعة الجلوس، ودخان التبغ يملأ المكان، في حين شرعت النساء يلعبن لعبة الكونكان... وكان المشهد الذي عشته منذ ساعة قد هزنى كثيراً... صحيح أنه لم يكن واضحاً، لكنه كان مؤكداً ولا يدع مجالاً للشك ..

- نعم هو الخسوف .. لاشك في ذلك ..

قالها سير (جيمس) وهو يهرش رأسه ..
سألته في اهتمام :

- هل (لوخ نم) هي أكبر بحيرات اسكتلندا؟

- كلا.. بل أكبرها هي بحيرة (لوموند) ..

- وما حكاية هذا الوحش!؟ ..

في غموض ضيق السير (جيمس) عينيه ونفت دخان سيجاره .. قائلاً:

- إنها قصة طويلة ..

ثم إنه نفخ رماد السيجار في منفضة زجاجية بجواره، وقال:

- إن أفضل من يحدثك عن هذه القصة، هو المسز

(هوايت) ..

- (كونستانس) ..! ..! ..! - د. (إسماعيل) عن

قصة الوحش ..!؟ ..

قال الرجل العجوز الذي نسيت وجوده تماماً :

- إن زوجتى خبيرة بالموضوع .. وقد قامت بتأليف كتاب كامل عنه .. (*)

استدارت (كونستانس) من فوق كتفها وهي منهمة

في اللعب، وقالت دون أن تنظر إلى:

- لا يوجد الكثير مما يُقال ..

لقد بدأت القصة عام ١٩٣٣ حين خرج (جون ماكى)

صاحب فندق (رمنادروشيت) مع زوجته للنزهة عند

البحيرة .. وهنا رأيا مارأيانا نحن تقريباً ..

جسماً أسطوائياً مقوساً داكن اللون، ينزلق فوق مياه

البحيرة... وبالطبع فإن كون اثنين رأياه، يدل على أنه

ليس وهماً ..

(*) كل الشخصيات والأحداث في هذا الفصل حقيقية.

لهذا شاع الخبر .. وأطلقوا على الوحش اسم (وحش
لوخ نس) ..

قلت فى شك :

- لكنهما قد يكونان اتفقا على قصة ملفقة بغية
الشهرة ، أو ترويح حال الفندق الذى يملكانه ..

واصلت (كونستانس) القصة دون تعليق :

- فى ١١ مايو من نفس العام ، كان (الكسندر ريبو)
وولده (اليمستير) يسيران بجوار البحيرة ، فوجدا نفس
(الشيء) يسبح تجاه خليج (إيركهارت) فى حركة لولبية
غير عادية .. و .. لقد أنهيت أوراقى ..

وألقت بأوراقها على المائدة ، معلنة انتصارها على
(ماجى) ومسز (جولد) ..

- إن لعبكما لعب مبتدئين يا صديقتى! ..

صاحت (ماجى) فى احتجاج تطالب باللعب دورًا آخر ،
من ثم شرعت مسز (جولد) (تفنت) الأوراق ..

قالت (كونستانس) مواصلة قصتها ، وهى تأخذ
أوراقها :

- بعد ذلك استطاع (ويليام برودى) وهو فى قاربه
الأرو ، أن يشاهد ذلك المخلوق على بعد ميلين من قلعة
(إيركهارت) ..

قلت فى تساؤل :

- دانما قلعة (إيركهارت) هذه !؟

- نعم .. فى كل مرة يُشاهد هذا الشيء فى مسافة ما بين
قلعة (إيركهارت) و (أوجستس) ..

- هل هناك مرات أخرى ؟

- نعم .. لقد شوهد حوالى ثلاثمائة مرة ! ..

صفرت بفسى معبرًا عن الاتيهار .. فابتسمت فى رضا
وقالت :

- دانما كان هناك الوصف ذاته ..

جسم أسطوانى طويل .. طوله يتراوح بين ٦ - ١٥
مترًا .. يسبح بسرعة ٢٠ عقدة .. وطريقة سباحته هى إما
الحركة اللولبية وإما التثنى المستمر ..

هناك من قالوا إن له معرفة حسان لكنى لأثق كثيرًا
بهذه الإضافة .. ولم يسمع له أحد صوتًا حتى الآن ..

- وهل استطاعوا تصويره !؟

- منات الصور .. لكنها جميعًا تمت فى نفس الظروف
التي رأيناها فيها هذه الليلة .. أى أنها جميعًا صور غير
واضحة ، ولا يمكن الاعتماد عليها بشكل علمى ..

- وهل حاول العلماء دراسة هذا الموضوع !؟ ..

قالت وهى ترتب ورقها :

- أكثر من مرة .. أكثرها جدية هي محاولة العالم
(ونزل) الذي جاء من (جلاسجو) ومعه فريق كامل من
الكشافة، أمضوا أياماً عديدة في انتظار ظهور هذا
الكائن .. لكنهم لم يوقفوا ..

بل إن سيرك (برايتون) أعلن عن جائزة مادية هائلة
لمن يأسر هذا الوحش .. لكن - بالطبع - لا بد لك قبل أن
تأسر الوحش أن تجده .. ولهذا لم يفز أحد بالجائزة ..

ثم كانت محاولات ضابط البحرية الكوماندور (ر. ت.
جولد) رحمه الله. وهي محاولات موفقة إلى حد ما ..

- (ر. ت. جولد) .. إذن مسز (جولد) ..؟

- نعم .. هي أرملته ..

- ولكن .. يالها من مصادفة!

ابتسمت مسز (جولد) في مرارة ورفعت وجهها
نحوي:

- ليست مصادفة .. إن وحش (نس) هو الذي جمعنا
جميعاً ها هنا، لأننا - جميعاً - من المهتمين بهذه القصة .
قال السير (جيمس) في مودة:

إننا مجموعة من الأصدقاء نبحث عن الحقيقة، وإننا
لا بد واجدوها .. إن زوج مسز (هوايت) هو مدير قناة
(كاليدونيا) التي تحرس البحيرة ومسز (هوايت) نفسها
صاحبة أهم كتاب عن الوحش ..



- مئات الصور .. لكنها جميعاً تمت في نفس الظروف التي رأيناها فيها
هذه الليلة .. أي أنها جميعاً صور غير واضحة ..

أما مسز (جولد) فهي أرملة مؤلف ثاني أهم كتاب عن هذا المخلوق، ثم (ماجى) وأنا بحكم جيراننا لمسرح الأحداث، وكوننا رأيناها مرارا.. بل إننى كدت أدهمه بسيارتى!

- سيارتك؟.. هل هو ..؟

- نعم.. إنه يترك البحيرة كثيرا كى يتسكع هنا وهناك .. وقد رآه كثيرون بفعل هذا ..

ابتسمت فى سخرية، وشرعت أفهقه بصوت خفيض .. فقال سير (جيمس) فى حنى:

- ما الذى يضحكك؟.. إن كل ما قلناه حقائق علمية .. استدركت معتزلا بأننى لأسخر من كلامهم، لكنى أسخر من حظى العجيب، الذى يقذفنى دائما فى كل مكان بجوبه شبح، أو يغفو به مصاص دماء، أو ينتظر فيه وحش!..

هنا قال (برترام هوايت) فى لهجة موضوعية:

- إن كون الوحش موجودا من عدمه، لم يزل يحتمل الكثير من الجدل.. لقد رأى كل هؤلاء (شيئا ما)، لكنهم لم يروا وحشا كامل النضج ينفث النار من فمه، وبمعنى آخر إن هناك (شيئا ما) يشاهده الناس بكثرة فى هذه البحيرة، لكننا لانعرف ما هو ..

إن زوجتى قد درست الاحتمالات الأخرى كلها .. قالت مسز (كونستانس) فى نقاد صبر، بما يوحي أنها حكمت هذه القصة مرارا:

- لقد فكر العلماء فى كل شيء .. قالوا إن هذا الشيء سرب من الازوبرى .. وقالوا إنه حشد من سمك السلمون .. أو دلافين مشاغبة، أو أخطبوط عملاق .. قالت (ماجى):

- إلا أن أقوى الاحتمالات هو السمك الجذاف .. وهو نوع من السمك يعيش هنا .. اسمه العلمى هو هو ريجد....

قالت مسز (جولد):

- (ريجاليكاس جليمنى) .. - نعم.. كما قالت بالضبط... هذا السمك له معرفة حصان وطول السمكة مربع .. وعمرها عشرون عاما .. إنها تناسبنا تماما ..

- إلا أن شيئا من كل ما قيل لن يظهر فى الصور بالشكل الذى رأيناها ..

قلت فى شرود:

- لكنى لأفهم .. إن هذا .. هذا الشيء .. غير مؤذ بالطبع .. أعنى أنه لايفعل أكثر من الظهور ليلا وإثارة التساؤلات ..

قال سير (جيمس) :

.. هو كذلك ..

ثم نظر إلى نظرة ذات معنى .. وغمغم :

.. حتى شهر مضى ..!

★ ★ ★

٤ - مرة أخرى ..!

في الصباح سرت أنا و (ماجى) على شاطئ (لوخ نس) متشابهى الأكف ..

تقع (إنفرنمشاير) في شمال (اسكتلندا) وسط مجموعة من المرتفعات اسمها مرتفعات (جرامبيان)، وتوجد في إنفرنمشاير أعلى نقطة في بريطانيا كلها .. واسمها (بن نيفس) ..

ومن نقطة (بن نيفس) يمكنك أن ترى الوديان كلها نائمة عند قدميك، وترى بحيرة (نس) بوضوح شديد، إن بحيرة (نس) هي أقرب لأخدود مايبين مرتفعات (جرامبيان) والمرتفعات الشمالية، هذا الجزء الأخدودى يدعى (جلينمور) ..

وتعتبر بحيرة (نس) - هكذا أخبرتنى (ماجى) - أضيق بحيرات اسكتلندا، حيث لا تزيد في بعض أجزائها على كيلومتر ونصف اتساعا .. عمقها ٢٦٦ مترا .. مساحتها ٥٦ مترا مربعا .. طولها ٨٣,٤ كيلومتر ..

لا أدري ما هي جدوى هذه الأرقام لكننى أسجلها للدقة الجغرافية فحسب .. ولكى أثبت لـ (ماجى) العريضة أننى لم أكن تلميذا معتوها إلى هذا الحد ..!

قلت لها معانبا :

- (ماجى) .. لم أر حتى اللحظة رجلا اسكتلنديا يرتدى

التتورة!

ضحكت فى سخرية . وقالت :

- إن هذا هو ولعلكم بالأنماط .. إنها زى شعبى نرتديه

أحيانا ، وليس طيلة الوقت .. نفس السبب الذى يجعلنى

لاأراك بالجلباب والطربوش ، برغم أننا لا نتخيل المصرى

إلا هكذا ..

- إن صورة الاسكتلندى فى ذهننا ، هى صورة رجل

يرتدى البيريه والتتورة ، ويعزف موسيقا القرب ، ويشرب

الويسكى طيلة اليوم ..

قالت فى مرح :

- نعم .. كما نتخيل المكسيكى بقبعة عريضة ، وحزامى

رصاص ، وزجاجة (تاكिला) ، يطلق النار طيلة اليوم ،

والأمريكى راعى بقر أبدى .. والألمانى بشوارب كثة

و (سالوبيت) وشوب ببرة .. إن السينما والسقصوص

المصورة قد أفسدت تفكيرك ، وجعلتك تميل إلى التتميط ..!

- هذا صحيح .. لكن التتورة ..

- على فكرة .. اسمها ليس تتورة ، ولكن (كلتيه) ..

كما أن الإسكتلنديين لبسوا بخلاء كما يحبون أن يصفوهم

فى القارة ..

- هذا ما لم أخبره بعد ..!

ضحكت فى دلال .. ثم أخذت تنظر لوجهى فى ثبات .. أه

باملاكى !.. ليت لى وجهها أجمل من هذا كى أريه لك ..!

فى ضوء النار تبينت - بوضوح - ما افترفته السنون من

جرائم فى حق هذا الوجه .. وجهها .. لم تعد نضرة .. ولم

تعد صافية .. لقد صارت واحدة أخرى .. لكنها ظلت رائعة

برغم كل شيء .. ولم أكن فى حاجة إلى كثير جهد ، كى أقع

فى غرامها من جديد .. سيكون هذا هو الحب الثانى فى

حياتى .. أولاً أحببت فتاة رقيقة هشمة اسمها (ماجى) .. ثم

الآن سأحب امرأة ناضجة منهكة اسمها - أيضا -

(ماجى) .. ولن تتهمنى إحداهما بأننى أخونها مع

الأخرى ..!

قالت فى شرود وهى تتأملنى :

- بحق السماء !.. أنت قد شخت حقا ..!

- أسف على كونى قد شخت ، وأعدك ألا أكرر هذا

الخطأ ..!

أخذت تضحك .. ثم قربت وجهها من وجهى ..

وهمست :

- للأبد..!؟

- ماذا..؟

- ستبقى معى للأبد..؟

- وحتى تحترق النجوم كلها.. ولن...

وهنا صرخت فى هستيريا وهى تشير للبحيرة:

- هل تراه..؟ إن (نيسى) يتحرك هناك..!!

اللعنة..!

إن هذا (الأخ) بنوى أن يحطم أعصابى...! وهو لا يختار إلا أسوأ اللحظات - أو أفضلها - كى يعلن عن وجوده، ويواصل رحلته البلهاء فى هذه البحيرة..

هوذا ذلك الجسم الأسطوانى الرمادى يشق طريقه بين الأمواج من بعيد، وريذاذ الماء ينتشر حوله.. أقرب شيء لغواصة تتحرك تحت الماء، وقد علا الماء منها حوالى ثلاثين سنتيمترا.. إلا أنه بدأ أكثر ليونة ومرونة من المعدن.. لاشك أنه كانن حتى.. سمكة عملاقة أو حوت أو شيء من هذا القبيل..

صاحت (ماجى) - وكنت قد بدأت أمقتها هى ووحشها - فى ذهول:

- لم يحدث أبدا أن رآه أحدنا فى ضوء النهار..

ثم نظرت ناحيته فى حسرة.. وتنهفت:

- لو كان معنا كاميرا..

قلت لها وأنا أمد يدى فى حقيبة اليد التى أحملها:

- معى واحدة.. ولكن لا تقولى إنك تتوین إضاعة عدة

لقطات على هذا الشيء الأبله...

صاحت حائقة وهى تنتزع منى الكاميرا وتضبط

عدستها:

- هل كانت معك طيلة الوقت، ولم تهتم بإخبارى..؟

لو أنه غاص فى الماء قبل أن أصوره لقتلتك!!

- لكنى لأفهم.. ستكون مجرد صورة أخرى لا تثبت

شيئا.. أمواج وجسم رمادى وسطها، ثم إن الفيلم أبيض

وأسود، مما سيزيد الأمور سوءا.. مجرد كثافات رمادية

لا يبدو فيها أى شيء..

- ششش..!!

قالتها وهى تصوب عدستها نحو الهدف.. و.. كليك!

كليك!.. كليك!.. عشرات اللقطات لما تعتقد أنه معجزة

اليوم.. كليك!.. كليك!.. كراك!! انتهى الفيلم لحسن

الحظ...، وهنا - قبل أن أفهم - تركنتى واقفا كالأبله،

وشرعت تركض تجاه القصر، وهى تصبح ملوحة

بالكاميرا:

- دادى!.. إنه (نيسى)!.. لقد صورته فى النهار..!

وقفت وحدى على شاطئ (لوخ نس) أرمق ذلك الشيء
المتحرك عن بعد.. فى غيظ رفعت قبضتى، وصحت
بالعربية التى لم يفهمها لحسن الحظ أحد :

- الأيام بيننا يا ماسورة المجارى الصندنة ..!
على أننى تذكرت ما رواه لى السير (جيمس) ليلة
أمس، مما جعلنى أفضل عدم تحدى هذا الكائن، بل أقرر
أن أنهى جولتى لأعود للقصر ..

★ ★ ★

كنيب جداً هذا القصر الذى يملكه السير (جيمس) ..
وكل ركن فيه يذكرنى بأشباح اسكتلندا العديدة، التى نراها
فى السينما .. ودرع الفرسان الواقفة فى الردهة تبدو
كأنها حية على وشك الحركة فى أية لحظة .. وبالطبع لا بد
أن تحت هذا القصر شبكة كاملة من الممرات والمناجات
ومقبرة منسية، وربما كنزاً مدفوناً ..!

ثم رئيس الخدم (جراهام) الوقور المتحلق، الذى يثير
وجوده فى نفسى الرعب وجوا من التشاؤم .. لو كانت هذه
قصة لـ (أجاثا كريستى) لوجدوا السير (جيمس) مقتولاً
فى مكتبه، ولما وجد المخبر - (هركيول بوارو) طبقاً -
متهماً أفضل من رئيس الخدم الغامض هذا .. لكن هذه
ليست قصة لـ (أجاثا كريستى) لحسن حظ السير (جيمس)
أو لسوء حظى أنا ..!



قالتا وهى تصوب عدستها نحو الهدف .. و .. كليك !.. كليك !..
كلتك !.. عشرات اللقطات لما تعتقد أنه معجزة اليوم

أخذ السير (جيمس) يسير بي بين الصور الزيتية،
يعرفني أفراد عائلته العريقة، التي كان هو آخرها
- بحكم النسب وبحكم الواقع - لأنه لم ينجب وريثًا نكرًا...
وكان هو يعشق الطب؛ لذا اتجه لدراسته، وصار طبيبًا
وأستاذًا لي ولغيري ..

- إن عائلتي تعود إلى عهد (ماكبث) نفسه!

- (ماكبث)!!

ضحك في جذل .. وقال:

- لا أصدق أنك قد أمضيت سنتين في اسكتلندا دون أن
تعرف أن (ماكبث) - بطل مسرحية شكسبير - كان
اسكتلنديًا ..

- لكنه شخصية خيالية ..

- كلا .. الأساس التاريخي للمرحية صحيح .. إلا أن
(مكدوف) لم يقتله في الواقع، بل عاش حتى عام
١٠٥٥ .. ومات ميتة طبيعية .. ثم تلاه (مالكولم) الثالث
في عام ١٠٥٨ ..

ثم يتالى تاريخ اسكتلندا المتشعب المعقد، وسلالة
ملوكنا الذين حكمونا من قصر (هوليرود هاوس) ..
ثم وضع يده على كتفى، وقادنى لغرفة مكتبه وهو
يقول:

- ولكن دعنا من هذا .. تعال لنرى صور (وحشك) التي
التقطتها (ماجى) .. لقد وصلت الآن ..

وعلى مكتبه الأثرى الفاخر، تناثرت صور
فوتوغرافية، لما التقطته (ماجى) صباحًا .. وكانت - كما
توقعت - في غاية الرداءة وعدم الوضوح ..

وقد زانتها قطرات الماء الممتطيرة فوق العدسة
سوءًا ..

- فاشلة تمامًا .. هه؟

سألنى وهو يقدم لى سيجارا، ويجلس خلف المكتب ..
فقلت:

- لقد أذرتها ..

قال لى:

- لكن هناك شيئًا جديدًا يستحق الاهتمام، هو أن وحش
(لوخ نس) قد غير من نظام ظهوره ..
نظام؟! ..

ابتسم فى مرح، وتساءل:

- بالطبع .. أليس وحشنا بريطانيًا ..؟ إنه منظم ودقيق
جدا .. وظهوره ليس عشوائيًا على الإطلاق ..

ومد يده لدرج مكتبه، وأخرج لفافة ورقى مقوى فردها
على المكتب .. وكانت عليها نقاط حمراء وخضراء، ورسم

دقيق لساحل اسكتلندا الشمالي، مع أسهم عدة... وبدأ
يشرح لي - في تودة - أن هذا المخطط يحاول تحديد أماكن
وتواريخ ظهور هذا الوحش، مع ربطها بالوضع الفلكي
وحالة القمر والساعة والظواهر الطبيعية كالمد والجزر ..
الخ ..

وكان من الواضح أنه يتحرك في دائرة مركزها على بعد
مائة متر من قلعة (إيركهارت) ... كما أنه من الواضح
أيضا أنه يختار ليالي المحاق - حين يغيب القمر - ويبدأ
الجزر وينتصف الليل كي يظهر .. وقد رسم له السير
(جيمس) - أو العبقري الذي لاحظ كل هذا - منحني
تفصيليا يتنبأ بدقة أين وكيف سيظهر المرة القادمة ..
- في أغسطس ٦٤ سيظهر في منتصف ليلة الحادي
عشر هنا ..

في سبتمبر ٦٤ سيظهر في منتصف ليلة اليوم السادس
هنا ..

صحت باتيهار :

- إنه عمل رائع ..!.. إذن كل ما تحتاجونه هو أن
تكونوا هناك في هذه اللحظة بكاميراتكم وكشافاتكم ..
- لم نفعل هذا بعد، وسأقول لك السبب بعد قليل ..
ونافذًا إلى الخريطة المعقدة أمامي تذكرت شيئا :

- وأين يذهب بعد هذه الفترات ..؟ أين عرينه ..!؟

هرش السير (جيمس) رأسه في تودة .. وغمغم :

- هذا هو السؤال كما يقول هاملت .. ثمة احتمالان ..
الاحتمال الأول هو أنه يعيش في كهف تحت البحيرة،
وأنت تعرف المقولة الشهيرة إن كل كهف تحت البحر في
اسكتلندا يحوى وحشا خرافيًا ..

الاحتمال الثاني هو أنه يعيش في بحر الشمال، وحين
يعلو الفيضان في شهرى يناير وفبراير، يتمكن من دخول
(لوخ نس) عبر إحدى قنوات (كاليدونيا) السبع ..
ولكن .. لكم من تساؤلات تحيط بهذا المخلوق !

★ ★ ★

٥ - صخرة التضحية ..

قال سير (جيمس) :

كانت الصحافة تؤيد دائما الاحتمال الثاني، خاصة أن الوحش لا يظهر بتاتا في السنوات التي لا يجيء فيها الفيضان ..

إن بحر الشمال مليء بالأسرار .. وهو يحتمل وجود مئات الوحوش مثل وحشنا ..

- وما رأيك أنت ..؟

- أنا متعادل .. التجريب هو القياس الوحيد الذي أعرفه ..

قلت في حماسة :

- لماذا لا تمدون شبكة - كالتى يضعونها حول المواتي لمنع تسلل الغواصات المعادية - لتسد قنوات كاليدونيا هذه ؟

قال ببرود :

- وعندئذ ؟

- وعندئذ نعرف .. لو لم يعد الوحش للظهور في (لوخ نس) فمعنى ذلك أنه سجين في بحر الشمال الرهيب ..

- لم تزل متسرعا كعهدي بك !

قالها في عتاب .. ثم بدأ يشرح لى ما غاب عنى :

- يحتاج هذا إلى شبكة طولها كيلومتران، وارتفاعها ٢٦٠ مترا، كى تسد القناة .. فكيف نصنعها .. وكيف نعطل الملاحة ؟

ثم هب أننا فعلنا ذلك .. فإننا لن نثبت شيئا .. لو كان الوحش داخل البحيرة لحظة وضع الشبكة، سيظل يظهر كعادته دون أن نعرف شيئا .. فكر فى حل آخر ..

شرعت كالمحموم أفكر .. لم أصل لشيء، فقلت له ما معناه أن حمارى قد غلب، فقال وهو يعبث بالقلم :

- السونار (*) .. الموجات فوق الصوتية قادرة على مراقبة مداخل القناة دون أن تسدها .. وتستطيع دراسة الأعماق دون جهد وبتكاليف لا تذكر ..

لقد قام قسم فيزياء الصوت - تحت إشراف (ماجى) وموافقة (برترام هوايت) مدير القناة - بمراقبة القنوات السبع طيلة فترة الفيضان، بوساطة تقنية معقدة من الموجات فوق الصوتية .

(*) السونار : كلمة هى ملخص الحروف الأولى من المقطع (الملاحة بالصوت وترديده)، وهو عبارة عن رادار مصغر يرسل الموجات فوق الصوتية ويستقبلها حين تريد، وله كثير من التطبيقات فى الطب وعلوم البحار .

- والنتيجة ؟

- سلبية .. لم يمر من قناة كاليدونيا سوى أسماك .
وبرغم هذا عاد (نيسى) يمارس عمله .. فماذا نستنتج من ذلك .. ؟

- أن الوحش كان هنالك دائما .. فى القاع ..

- هو كذا ..

ثم أنه نهض وأخذ يتجول فى الغرفة عاقذا يديه خلف ظهره .. مهيبا رائغا كعهدى به .. بعد دقائق من الشرود قال لى :

- لقد لاحظت أن ظهور الوحش كان دائما حول محيط دائرة مركزها قرب قلعة (إبركهارت) .. لقد حاول الكومندور (ر . ت . جولد) أن يحدد مركز هذه الدائرة بالضبط ووجد أنه صخرة ضخمة فى وسط البحيرة .. وقد استكشفتنا هذه الصخرة خفية ، حاملين بعض المعاول .. فوجدنا عظاما بشرية - كلها لأخف ومعاصم - ووجدنا صندوقا من الخشب المتآكل ، تفتت فى أيدينا حين حاولنا إخراجه .. وداخل الصندوق كانت هناك قلادة غريبة الشكل ، وبوق من العاج أو ربما من قرن ثور برى ، ولحافة من الجلد ..

تجمدت فى مقعدى لأن القصة بدأت تأخذ مجرى شديد الإثارة بالفعل ..

انا أحب هذه الأشياء ، وأعتقد أن أكثركم يشاركنى
الرأى ..

استطرد سير (جيمس) فى قصته :

- وها هى ذى اللغافة ..

ومد يده . وأخرج من درج المكتب شيئا متأكلا قذرا .
عليه رسوم باهتة سانجة .. زوارق .. وأشخاص .. وشيء
كالشعبان يخرج من الماء .. و ... لم أفهم شيئا من هذا
الهراء .. ولم أحاول أكثر ..
قال سير (جيمس) :

- أنت تعرف أن شمال اسكتلندا كان محتلا بقبائل
الفايكنج والسلت فى القرن الثانى عشر .. فى عصر الملك
(دافيد) بن (هنرى) الأول و (ماتلدا) ..
طبعاً لم أكن أعرف شيئا من هذا ، لكنى هزرت رأسى بما
يعنى أن هذه المعلومة قديمة جداً ومكررة ..

قال سير (جيمس) فى رزاة :

إن لدينا ما يحملنا على الظن ، أن هذا المخطوط خاص
بقبائل الفايكنج .. وهو يرسم قصة مسلية جداً .. سأشرحها
لك ؛ لأننا قد قتلناها دراسة ..

المشهد الأول يصور الآلهة غاضبة .. وأعتقد أنها هى
(أودين) معبودة الفايكنج الوثنية ..

المشهد الثاني بصور وحشًا كالثعبان له معرفة حصان
يهاجم الناس من الماء ..

المشهد الثالث بصور ، رجلًا ينفخ في البوق عند أحد
الخلجان ..

المشهد الرابع بصور فتاة مقيدة على الصخرة ونصفها
السفلى متدل في الماء ، في حين يتقدم الوحش ليفترسها ..
وعلى صدرها قلادة معينة ..

لاحظ أن القمر غير باد في الصورة ..

والآن نستطيع أن نجمع أطراف القصة ..

لقد اعتاد الفايكنج - أو السلت - تقديم القرابين لوحش
(لوخ نس) كي يتركهم وشأنهم ؛ لأنهم اعتقدوا أنه انتقام
من معبودتهم الوثنية (أودين) .. وكانت القرابين تقدم له
عند هذه الصخرة ، في صورة عنراوات شبابت يُقيدن
بالسلاسل ، ويلبسن قلادة الفداء ..

ثم يقف كاهنهم عند خليج (إيركهارت) ، وينفخ في
البوق .. من ثم يتحرك الماء ويرتفع رأس الوحش خارجًا
من كهفه .. لا بد أن تأثير هذا كان دراميًا وإننى لأحب أن
أرى هذا المشهد أبدًا ..

كان هذا يحدث بانتظام ، بحسب التقويم الدينى لهذه
القبائل ، الذى لأعرف عنه شيئًا للأسف ، لكننا نستطيع
التنبؤ به ..

وبمرور الوقت لم يعد هناك فايكنج ولاسلت .. فماذا
يفعل هذا الوحش المسكين ، الذى فقد مصدر طعامه؟! ..
لقد عاد ليغفو فى كهفه مكتنبا منتظرا قدوم الفرج ، وأن
يسمع مرة أخرى صوت البوق يدعوه للعشاء ..

ومع الوقت تعلم أكل السمك .. لكنه ظل يدور حول
صخرة القربان ، فى المواعيد التى تعلمها .. مواعيد
الفايكنج لتقديم القرابين ..

إن مذاق الفتيات الحسنات ظل حيا فى ذاكرته ، وقد
ظل يأمل أن تعود تلك الأيام ..

هل لديك أية أسئلة؟! ..

قلت بعد أن تتحنحت لأنظف حنجرتى :

- هل هو نفس وحش الفايكنج؟! .. أعنى كيف يعيش
كائن حى من عصر الفايكنج حتى اليوم؟! .. حوالى ثمانية
قرون ..؟! ..

قال السير (جيمس) :

- ربما كان هناك أكثر من واحد يتناسلون فيما بينهم ،
ويورثون ذرياتهم ذكرى مبهمة عن صخرة القرابين ..

وربما كان نفس الوحش ، وهو فى حد ذاته ظاهرة
علمية ، فلم لا يكون عمره هو نفسه ظاهرة أخرى؟! .. إن
السلفاء قد تعيش قرنين .. فلم لا يعيش هذا الشئ ثمانية
قرون؟! ..

قلت فى حيرة :

- والقلادة؟.. لاهد أنه كان يبتلعها فى كل مرة ..
فكيف؟..

- كانوا يصنعون قلادة فداء جديدة فى كل مرة .. هذا
ليس صعبًا ولا مكلفًا ..

تفكرت حينًا فى كلامه .. ثم قلت فى ارتياح :

- الواقع أن نظريتك تبدو متماسكة .. واسمح لى أن
أضيف إلى ذلك أن سفن الفاينجج التى كانت تجوب بحر
الشمال، كانت تحمل فى مقدمتها نحتًا خشبيًا لرأس وحش
يشابه تخيلنا لـ (نيسى) .. كأنهم أرادوا أن يرضوا
(أودين) ، أو يخدعوا الوحش كى لا يهاجمهم ..

لاهد أنه كان مرعبًا حين يبرز لسفنهم فى ظلام الليل،
وسط بحر الشمال الرهيب ..

وارتجفت حين تخيلت المشهد .. لحسن الحظ أننى لم
أكن هناك ..

قال سير (جيمس) وهو يجمع أوراقه :

- لكنى لم أقل بعد أخطر ما فى الموضوع .. لقد سرقت
القلادة والبوق من الكومندور (جولد) فى ظروف
غامضة ..

- سرقت؟

- نعم .. ثم استجد شيء آخر ، هو أن الوحش صار
يظهر فى أوقات غير منتظمة .. أى أن هناك من يستعمل
البوق ليناديه كلما أحب ذلك ..
- ولأى غرض؟..

- هذا هو ما أعدليتك لمحبة عنه ليلة أمس ..

لقد زرنا الصخرة منذ أسبوعين - أنا و (ماجى) -
فوجدنا سلسلتين مثبتتين بالصخر ، وتكديان فى الماء ..
جذبنا السلسلتين لنعرف .. فماذا وجدنا؟

قلت فى هلع :

- لا .. لا تقل ..

- نعم ..!.. كما فهمت أنت!.. كفين ومعصمين مقيدين
بالسلاسل، وقد بُترا تمامًا .. إنهما ما تبقى من إنسان
نهشه الوحش بالكامل، وترك الجزء المقيد لأنه لم يستطع
انتزاعه .. كانت اليدان رقيقتين مما يوحي أنهما لفتاة ..

وفى البلدة كان النبوليس يبحث عن شقراء تدعى
(جوسلين)، اختلفت منذ ثلاثة أيام، ولم يعرفوا لها أثرًا ..
وبالطبع لا يحتاج المرء لكثير ذكاء كى يعرف أين ذهبت
(جوسلين) هذه ..

صحت فى تقزز وأنا أشعر بالعالم بدور من حولى :

٦ - القَبْو ..

جالمنا بجوار (ماجى) فى غرفة الجلوس فى تلك
الأمسية، شعرت بدهشة غير عادية وانبهار لاحد له بها ..
هذه الفتاة الرقيقة - أو المرأة الرقيقة - التى لم تنزل
متعلقة بى، تخفى فى أعماقها قوة هائلة، لم أتخيل أنها
لديها .. هى تعرف كل ما تعرفه، ولم تخبرنى به .. هى
تدير مشروعًا عملاقًا لمراقبة قناة (كاليدونيا) بالموجات
فوق الصوتية، دون أن تثرثر عن ذلك طيلة الوقت .. هى
شاهدت ذلك المنظر البشع على صخرة القربان ولم تنهر ..
ولم تفقد عقلها ..

غريبة أنت يا (ماجى) .. وإن غموضك ليفوق كل
قدراتى على التوقع ..

قلت لها :

- لماذا لم تخبرينى ..؟

- بم ...؟

- بما قاله لى والدك اليوم .. عن الوحش ..

قالت فى حذر وهى تنظر ليعنى نظرة ثابتة :

- سير (جيمس) ..!.. هل .. هل تعنى أن هناك من عاد
بمارس تقديم القرابين البشرية لوحش (لوخ نس)؟

- بالفعل .. وسواء كان هذا الشخص سفاخًا، أو
مجنونًا، أو عالمًا مخبولًا، فالنتيجة واحدة .. وهو يعرف
مانعرفه بالضبط ... إنه يخطف الفتاة ويقيدها على
الصخرة، ثم ينادى الوحش بالبوق ليعبثها إلى
(فالهالا) (*) ..

- باللفظة !

أضاف السير (جيمس) وقد اكتسب صوته نبرة درامية
لاداعى لها :

- الملحوظة الأخيرة، هى أن هذه الفتاة من أصل
سويدي .. أى أن أجدادها كانوا من غزاة الشمال ..!

★ ★ ★

(*) (فالهالا) : هو الاسم الذى كان يطلقه الاسكندنافيون
والجرمان على العالم الآخر .. وكان الأخبار فى عقيدتهم يدخلون
الفرديوس فيجلسون على موائد عليها لحوم الخنزير البرى التى
لا تتلف ويشربون اللبن المقدس من عنزة (هايدروكس) ..
أما الأشرار والخونة فيذهبون إلى مملكة الجحيم (نيلهايم) حيث
يلاقون أعتى ألوان العذاب ..

- حسن .. ما الذى قاله لك بالضبط ..؟. ما الحد الذى وصل إليه علمك؟

مرة أخرى تثير إعجابى .. إنها تخشى أن يكون كلامى محاولة لجعل لسانها ينزلق .. المهم أننى شرعت - دون حذر - أخبرها بكل ما قاله لى المسير (جيمس) وهى تصفى دون تعليق .. ثم سألتها فى عتاب :

- لماذا لم تخبروا البوليس بما وجدتموه على الجزيرة ..؟ إنهم أكثر منكم على العثور على سارق البوق والقلادة .

اهتسمت فى غموض وقالت :

- إن البوليس لن يعثر أبداً على السارق ، لأنه لم يترك أثراً ..

- على الأقل يمكنهم مراقبة الصخرة لمنعهم من قتل فتاة أخرى ..

- (رفعت) ..!.. أنت لا تفهم .. إن لدينا هدفاً أكبر من كل هذا .. فلا تجعل أبى يندم على إخبارك بما لم يكن ينبغى أن تعرفه ..

تهدت فى ضيق ، قائلاً :

- حسن .. لقد انتهت هذه العطلة ، وسأعود غذا إلى (أنبرة) فلا تدخل لى بمشاريعكم المريبة ..

قالت فى حنان اوشكت أن أنسى مذاقه :
- لقد وعدتني أنك باقى للأبد .. على الأقل تستطيع أن تظل معنا هذا الأسبوع ؛ لأن أبى لن يعود إلى (داندى) غذا ..

ثم مدت سبابتها إلى ذقنى .. وأردفت :

- ثق بنا يا (رفعت) .. ثق بنا .. هه !..

ساد الصمت بضع دقائق فيما عدا دقائق الساعة .. نهضت ومضيت أسير فى الغرفة واجماً .. أزرعها هنا وهناك . حتى توقفت أمام لوحة زيتية شنيعة معلقة فوق المدفأة . تمثل راعياً يعزف لحن حب لحبيبته .. تأملت اللوحة هنيهة ، ثم استدرت .. وهنا تذكرت شيئاً .. فعدت أتأمل اللوحة .. إن هناك آثار كف مرسومة بعناية . على معالم اللوحة .. كأن بدا اعتادت ضغط اللوحة فى هذا المكان . مما أدى بالعرق والاحتكاك إلى ذوبان بعض من الطبقة الزيتية عليها ..

لم أتردد ومددت كفى إلى نفس الموضع .. وضغطت .. كان قابلاً للانضغاط .. وسرعان ما شعرت أن رافعة ميكانيكية من نوع ما تتحرك .. وبرغم الصداً والقدم المخيم على الموضوع كله ، انزاح الجدار الخلفى للمدفأة ، محدثاً صريخاً يؤلم الأسنان .. وتبذى لى ما يشبه البئر الذى نُحِتت درجات فى جداره ..



ابتسمت متشفيًا ، ثم إنسى نزع جاكيت الخُلة الذي
أرتديه ، وانتزعت شمعة من الشمعدان الموجود فوق المدفأة ،
وأشعلتها بعود نقاب ..

نظرت لـ (ماجى) متمسلاً .. لكن نظراتها كانت صريحة
في دهشتها .. لم تكن تعرف شيئاً عن هذا الباب السحري
بالفعل ... فقلت لها :

- إنه شيء نعطي جداً فى القصور الاسكتلندية .. الباب
السحري المؤدى إلى مخراج ما .. لكن هل يعرف أبوك به ؟!
هزت رأسها فى حيرة :

- لا أدرى .. أنا أعرف أن هذا القصر مليء بالممرات
السرية ، لكنى لم أر أحدها من قَبْل ... ، باللقباء !.. لقد
أمضيت كل حياتى أتساءل عن سر هذا الكف على اللوحة ..
لكنى لم أحاول أن أضغط عليها ، ولا أعتقد أن أحد الخدم قد
حاول .. فقط بمنفضة الغبار بالطبع ..

ابتسمت متشفيًا ، ثم إننى نزع جاكيت الخُلة الذى
أرتديه ، وانتزعت شمعة من الشمعدان الموجود فوق
المدفأة ، وأشعلتها بعود نقاب ..

- ولكن .. إلى أين تظن أنك ذاهب ؟

قلت وأنا أفس بجسدى فى المدفأة :

- سؤال غريب .. لست ذاهباً إلى (ديزنى لاند) على أى

حال ..

قالت مرتاعة وجسدها يرتجف :

- أليس من الحكمة أن تنتظر حتى نخبر (دادى) .. ؟!

يعوق انغلاق الجدار..!!.. إنهم يتذكرون هذه التفاصيل
دائما في السينما، لكنني لست بطل فيلم سينمائي، لهذا لم
أكن مدربا على هذه الأمور..!!

والآن ها نحن أولاء واقفان في هذا القيو المجهول،
ولاسلح لدينا ولا مصدر ضوء سوى هذه الشمعة..!
- (ماجى) ياملاكى.. أخشى أننا فى مازق حقيقى..
التمعت عينها فى الظلام على ضوء الشمعة..
وصفقت بيديها فى مرح هاتفة:

- إنها أروع تجربة فى حياتى..!!.. تخيل أنا وأنت فى
هذا القيو المرعب.. معا نتحسس الجدران وترتجف..
ونمشى فى الوحل بين جثث الغران وعظام من سبقونا..
ثم يشتد بنا الجوع والظما.. عندئذ تتمزق أنت من أجلى..
وتخلع قميصك كى تسترنى به من البرد... ثم ينتهى بى
الأمر وأموت بين ذراعيك..!
.. أليس هذا رائعا؟..!

- .. يا لك من بلهاء تماما..!!.. إن للنساء قدرة غير
عادية على العثور على الرومانسية فى مواقف لاتعنى
للرجال سوى مصيبة..
- ثم إنك تموت بعد ساعات حزنا على.. وتتحلل
جثتاننا، وبعد منات الأعوام حين يكتشف أحدهم هذا القبر،

نظرت إليها نظرة ذات معنى.. وقلت:

- ياملاكى.. لست من هؤلاء الأشخاص أقوياء
العزيمة، الذين يجدون ممرا سريا فى قصر اسكتلندى
عتيق، ثم يحجمون عن دخوله..، إن هذا أقوى منى..
صرخت فى حدة:

- انتظر..!!.. سألحق بك.. يجب أن أتأكد أنك لن
تموت..!
- ولكن..

وقبل أن أفهم كنا قد دخلنا البئر - أنا وهى - ننزل
الدرجات الصخرية، وأنا أحاذر حتى لايلتهم لهيب الشمعة
أطراف ثوبها..، وكانت الدرجات قليلة لحسن الحظ...
وفى أسفل البئر كان هناك قيو طويل تفوح منه رائحة
العطن.. و....
كلانج..!!

ما هذا الصوت..!!.. وما سر الظلام الذى ساد القيو
فجأة..؟

نظرت (ماجى) لأعلى، ثم قالت:

- لاشء..!!.. لقد انغلق الجدار الحجرى خلفنا!
يالى من مغفل..! لقد كان الباب يفتح لفترة محدودة، ثم
ينغلق بعدها.. لماذا لم أبقها فى الخارج، أو أضع شيئا

سجد هيكلين عظيمين متشابهي الاكف .. عندئذ يحاول
فصلهما فيستحيلان إلى تراب!
قلت متهمكما :

- نعم...! مثل (إزميرالدا) و (أحدب النوتردام) ! (*).
- نعم.. هل قرأتها؟ إنها مؤثرة إلى حد البكاء ..
لم أعرف ما أفعله .. هل أخنقها ، أم أمزقها ، أم أكتفى
بتوجيه لكمة إلى أسناتها؟ اكتفيت بأن قلت لها :
- لم يزل هناك بعض الوقت قبل هذه النهاية الرائعة ،
لهذا أرى ان نتحرك الآن .. هذا المكان ليس شاعرياً إلى
درجة الموت ..

قالت - وقد استعادت صوابها - وهي تنتظر لأعلى :
- ولكن لا بد أن هناك مخرجاً من هذه الجهة ..
- هذا معقول .. إن من يبتكر طريقة للدخول ، يبتكر
طريقة للخروج ..

وشرعت - أنا وهي - نتحسس حجارة الجدار حجراً
حجراً ، ونضغط على كل نتوء وكل حجر يتحرك ... وخبطنا

(*) أحدب النوتردام رائعة الكاتب الفرنسي فيكتور هيجو .. في
نهاية القصة نموت الفجرية الحسنة (إزميرالدا) فيصير الأحدب
(كوزيمودو) على أن يدفن معها .. وتنتهي القصة بموقف الهيكلين
العظيمين المتشابهين كرمز لخلود الحب ..

بكموب أحذبتنا على كل رقعة في الأرضية ، وتسلفت السلم
مرة أخرى كي أعيد استكشاف الجدار .. دون جدوى ...!
قالت (ماجى) وقد عادت الجدية لملامحها :
- لو بقينا في هذه المحاولات الخرقاء فسنموت حتماً ..
يبدو أنه لا مفر من السير في هذا الدهليز إلى آخره ..
- ولكن الشمعة ..

أخرجت منديلاً حريراً من جيب ثوبها ، ثم بللته بلعابها
بأن كوّرتة وحشرتة في قمها بضع دقائق .. وقربت منه
لهب الشمعة فأخذ يشتعل بهبط شديد بسبب البلل ..
- هكذا .. والان أطفى شمعتك إلى حين الحاجة إليها ..
قلت لها في انبهار :

- من علمك هذه الطريقة؟

قالت وهي تمسك المنديل المشتعل بطرف أناملها ،
وتضعه فوق قطعة عظم :

- في الحرب العالمية الأخيرة ، كانت ربات البيوت في
لندن وباريس - توفيزا للطاقة - يستعملن أوراق الجرائد
المبتهلة لإشعال الموقد .. وكانت جريدة واحدة تكفى لظهو
وجبة لأسرة كاملة ..!

كان عمري ثلاثة عشر عاماً وقتها ..

- أه يا عزيزتى ..! كيف أستطيع أن ألعب معك دور

الرجل الذي يحس، في حين يبدو لى أنك من مستولين
حمايتى؟!..

فى صمت شفقنا طريقنا فوق أرضية وعرة .. وكانت
هناك فنران تمرح فى حرية تامة... ويقع ماء آمن على
الأرض يبدو أنها نتجت عن تراكمات الرطوبة عبر
القرون ..

سأظل أنكر ما حبيت مسيرتنا الواجمة، وهى تسبقنى
بخطوة حاملة المنديل المتوهج يلقى بظلال غامضة حولها
-ولكم أخشى الظلال الغامضة- كأنها قادمة من عالم
آخر، تكوونى إلى ما لم يره بشر قبلى... هل كان (دانتى)
يشعر بنفس شعورى، و (بياترس) تقوده فى ظلمات
العالم الآخر؟!.. (*)

وهنا بدأنا نلمح ما توقعته هى فى مزاحها من دقائق ..
عظائماً أدمية ملقاة فى إهمال بين الصخور، مختلطة بعظام
فنران .. لم أشأ أن أخبرها أن لهذا معنى واحداً: أنه لا يوجد

(*) (دانتى اليجيرى) شاعر إيطالى عبرى من عصر النهضة،
كتب ملحمة الكوميديا الإلهية، وفيها تخيل أن حبيبته (بياتريس)
-التي سبقته فى الموت فى سن الشباب- تهديه فى العالم الآخر
وتريه كل شيء هناك. والقصيدة تشابه فى وجوه عدة (رسالة
الفنران) للشاعر (أبى العلاء المعرى) ..

مخرج من هذا القبو... وأن هؤلاء التصاء قد حاولوا قبلنا
وفشلوا .. التهموا الفنران حية والتهمتهم الفنران أحياء ..
لاشك أن هذا القبو كان سجناً يلقى به أعداء الإقطاعى
مالك هذه القلعة، حتى يتعنفوا أحياء ..

لكن (ماجى) كانت ذكية .. ذكية إلى حد مرعب ..
لهذا قالت لى فى كآبة:

- (رفعت) .. هل تعرف ما أظنه؟!..

- نعم ..

- إننا لن نخرج أحياء من هذا القبو ..!

* * *

مشكلة أسلوب (المتكلم) الذي أستعمله في سرد قصصى، هو أنه يطمئن القارئ تلقائياً على أننى سأنجو من كل مازق أمر به، وإلغما عشت كى أحكيه على لسانى...!.. ولو كنت أكتب بضمير الغائب، على غرار: ذهب.. جرى.. خاف.. لما كان القارئ متأكداً من سلامتى إلى هذا الحد!..

نعم.. أعترف أننى نجوت من كل مازق حياتى، حتى هذه اللحظة التى أكتب فيها.. وأعترف أننى لم أمت أبداً حتى اليوم!..

لكن أى رعب وأى هلع مررت به فى كل هذه الورطات!..

خذ عندك على سبيل المثال..

مسيرتى فى القبو المظلم خلف (ماجى) ولهب المندبل يتراقص.. وظلال غامضة تتلاعب فوق الجماجم المتناثرة هنا وهناك، كأنها تتحرك وتبتسم..

كيف تريدون منى أن أتوقع أننا سننجو..؟

كانت المشاهد تتشابه.. ولابد أننا سرنا مسافة كيلو متر كامل فى هذا القبو الأبدى، حين توقفت (ماجى) هامسة:
- لن أستطيع السير أكثر..

وجلست على الأرض بلمستانها الأثيق، وخلعت حذاءها.. وهى تلهث:

- إننى أموت من البرد برغم أننا فى شهر يوليو..
- هذا بسبب الرطوبة..

وجلست بجوارها على الأرض وخلعت قميصى ووضعته فوق كتفها، وأنا أقول فى تشف:
- رومانى.. أليس كذلك!؟

- احرص!..

ثم قالت فى تقزز من بين أسنانها:

- سيكون علينا أن نتعلم أكل الفلران!..

ارتجفت من هول الفكرة.. فقلت مبتلغاً ريقى.

- الأفضل الانتظار أسبوعاً دون أكل، حتى أستطيع تقبل الفكرة!..

قالت وكأنها تبصق:

- لو لم تتحامق وتدخل ذلك الباب السرى اللعين لما كنا هنا..

قلت:

- ولو لم تتبعينى فى غياب كنت أنقذتنى..

قالت وهي تتكور حول نفسها كالقطة وتلتصق بي :
- سننتظر هنا حتى الصباح .. أطفى هذا المنديل ! لأننا
لن نحتاجه مؤقتاً .. أرجو أن يكون معك ما يكفي من
الثقاب ..

- بالطبع عدد قليل جداً .. القصة دائماً هكذا .. إن
الأشخاص الذين يملكون علب ثقاب ملينة ، لا يضلون
طريقهم في ممرات مظلمة أبداً ..

- يالك من نحس !!

أطفأت المنديل وتكورت حول نفسي ، وشرعت أندن ..
أندن بصوت خفيض نشاز أغنية عربية حزينة ... وفي
الظلام سمعت صوت تنفسها المنتظم بجوارى ..

لقد نامت الهائسة ..

★ ★ ★

حين استيقظنا ، كانت العقارب الفوسفورية لساعتي
تشير إلى التاسعة صباحاً .. وكانت جالسة تتخلل خصلات
شعرها المبعثرة بأناملها ، في محاولة لتنسيق شعرها
بشكل ما .. ابتسمت في سخرية وقلت :

- ها هي ذي (حسنا الجب) تبدأ يومها !!

قالت والنوم لم يفارق صوتها :

- إذا كان شكلي عند الاستيقاظ يشابه شكك الآن أيها

المتشرد ، فإنني أرى ألا نتزوج أبداً ..! ما ذنب أطفالنا كي
يروا آباءهم مرعبين هكذا ؟ ..
كدت أردد برد لاذع ، لولا أنني لاحظت شيئا .. فصحت
من فوري :

- (ماجى) ! .. هل لاحظت ؟ .. لقد رأيتك ورأيتني ؟! ..
إن الظلام قد صار أقل كثافة في النهار .. أمس لم أكن أرى
يدي نفسها ..

- وهذا يعني ..

- أن هناك نوراً يدخل هذا القبو من مكان ما .. صحيح
أنه لم يزل ضعيفاً جداً لكنه موجود .. وسنجده ..!

وهكذا - ودون إبطار ودون غسيل وجه - نهضنا في
ثقة وواصلنا مسيرتنا دون حاجة لإشعال شيء .. لم يكن
هناك شك في أن النور يتزايد في كل خطوة نخطوها
للأمام ..

وفجأة قابلنا ما لم نعمل حسابه بعد .. العمر يتفرع إلى
ثلاثة ممرات أكثر ضيقاً وكلها يغمرها نفس الضوء
الخافت .. يالها من مشكلة ..! ..! ..! اخترنا العمر الأوسط ..
وسرنا معه بعض الوقت ، فوجدناه يتفرع إلى ممرين ..
هنا أمسكت بيدها كي أمنعها من الاستمرار ، وقلت :

- كلا .. إن الأمر يتحول إلى متاهة حقيقية سنضيع
فيها للأبد .. يجب أن تكون منظمين ..

أولا - سنتبع أسلوب (ثيذوس) الشهير ..
- ومن هو ؟! ..

- إنه البطل الإغريقي ، الذى دخل المتاهة (لابيرينث) فى جزيرة كريت كى يقتل (المينوطور) ذلك الوحش الذى كان نصفه العلوى لثور ، والسفلى لإنسان .. لقد ربط (ثيذوس) خيطا فى بوابة المتاهة كى يعرف دائما النقطة التى يعود إليها .. وبهذا لم ينته كمن سبقوه ..
سنرسم على الجدران - حفرا - خطوطا تحدد لنا الممرات التى مررنا بها .

ثانيا - يجب أن ننقل ليستكشف كل منا فرغا من هذين الفرعين على حدة ، على أن نلتقى هنا بعد ساعتين مهما كانت الظروف ..
قالت (ماجى) :

- وليعمل من يجد مخرجا على أن يرسم فى أثناء عودته خطوطا متعرجة كى تختلف عن أية خطوط رسمها فى ممرات أخرى ..
- فليكن .. ناولينى قلمى من جيب القميص .

وكسرت قلمى نصفين يصلحان للحفر فى الجدران ، وناولتها نصفاً .. ثم تمنيت لها حظا سعيدا وافترقتنا ..
الآن يجب أن أسرع .. لقد اخترت الممر الأيمن الذى

قائدى إلى ممرين آخرين .. اخترت الأيمن ، وسرت وراءه بعض الوقت ، إلى أن وجدته مسدودا بجدار صخرى ..
عدت أدراجى لنقطة التفرع ، واخترت الممر الأيسر ..
وسرت فيه دقائق إلى أن وصلت لنقطة يتفرع فيها إلى ثلاث ممرات .. فاخترت الأوسط .. وهكذا .. تستطيع أن تتخيل تعقيد ما قمت به .. إنه أمر منهك على الورق ، فما بالك به وأنت تمشى طيلة الوقت فوق صخور مدببة ..
وأفاسك تتلاحق .. وطرف القلم المكسور يدمى أناملك ؟! ..
ترى أى عقل سادى مخبول صمم هذه الممرات ؟!

مضى نصف الساعة وأنا فى هذه المتاهة .. وفجأة لمحت .. لمحت آثار أقدام .. أقدام واضحة فوق الغبار الطرى ، الذى بدأ يغلف الصخور ..! .. أقدام ليست لى ولا لـ (ماجى) لأنها كبيرة جدا ..

وبدأت أتتبع الأقدام - دون أن أنسى رسم علامتى - وقلمى يرتجف .. لا يمكن أن تكون آثار أقدام أحد هؤلاء الموتى المتحللين ، لأنها حديثة وطرية وصاحبها يرتدى حذاء عصريا ..

النور يزداد .. ويزداد ..
وأخيرا ..!

هاهى ذى ضالتي ..! .. نافذة مفتوحة فى الصخر ،

مسدودة بقضبان من الصلب - نشرها أحدهم لحسن الحظ -
ومنها يخرج النور الذي رأيته داخل القبو الكئيب ..
اقتربت من النافذة لأرى ما تطل عليه .. وعبر الفتحة
الصخرية كان رذاذ الماء يتناثر .. إنها بحيرة (لوخ نس)
الغافية أمامي في شمس الصباح البهيجة ، كأجمل ماراته
عيناي .. وأسفل النافذة كانت هناك صخور الشاطي ..
وعلى مسافة ما كانت صخرة كنيبة المنظر ، تكف وحدها
وسط الأمواج ، دون أن تعبا بها ولا بي ..

وعلى الصخرة كان هناك عمود خشبي قديم ، تتدلى منه
حبال ليفية .. لم يكن من الصعب أن أعرف أن هذه هي
صخرة الغداء ، التي كلمنى السير (جيمس) عنها
بالأمس .. بالأمس ؟ .. هل كان ذلك بالأمس فقط ؟! ..

على كل حال لقد وجدت ضالتي ، ولم يعد أمامي سوى
أن أعود أندرجي مع رسم خطوط متعرجة فوق تلك
المستقيمة التي رسمتها عند مجيئي ، وأنتظر (ماجى) عند
نقطة التفرع الأولى .. ثم نرحل معا من هذا المكان ..
وصلت للنقطة التي بدأت منها ، وقد قاربت الساعة
الحادية عشرة ..

وجلست على الأرض أنتظر (ماجى) وأنا أندندن تلك
الأغنية العربية الحزينة ، وأفكر في معنى هذا الذي وصلت
إليه ..

من الواضح أن هذا الممر كان مسدودا تماما بتلك
القضبان الكريهة ، وكان قبرا حقيقيا لمن يقذفه الحظ
العائر فيه .. ثم جاء ذلك الرجل (الخيزر) الذي أزال
القضبان ، ليمنح نفسه فرصة الخروج والدخول إلى القصر
وقتما شاء ، وليتمكن من الوصول إلى (لوخ نس) بسهولة
وسرية .. غير عالم بالطبع أنه يمنحنا فرصة الحياة ..

من هو ذلك الشخص ؟ .. وما غرضه ؟ .. لا أدري ، ولا
يعيننى أن أدري في الوقت الحالي ..
ولكن ..

لقد جرفتنى خواطري خلفها ، وفاتنى أن الوقت قد مرَّ
سريعا .. الساعة الآن الحادية عشرة والنصف ولم تعد
(ماجى) .. هل ممراتها متشعبة إلى هذا الحد أم أنها قد
نصبت رسم العلامات بحماقة .. أم أنها لاقت خطرا ما
- حفرة أو صخرة منهارة - أخرتها عنى ؟!

تعابن القلق تنهش قلبي .. ولم يكن هناك بُد من أن
أتبعها ..

نهضت من مكاني وبدأت أسير في حذر في الممر الذي
اخترته ، وكانت خطوطها دقيقة واضحة ومنظمة على
الجدار ، حتى أنني تخيلت يدها البلورية وهي تخطها منذ

ساعتين .. حنين غريب يبعث على التشاؤم بغزو روحى
تجاه تلك الخطوط، كأن من رسمتها لن تعود ..

كانت الشبكة معقدة بالفعل، لكنى سرت وراء الخطوط
التي لم تتوقف .. ولكن ..
هل أنا أتخيل ..؟

كلا .. إن قطرات الدم المتساقطة على الأرض هذه،
لا يمكن إلا أن تكون حقيقة !! ..
إنه دم (ماجى) ..

★ ★ ★

٨ - نهاية لغز ..

(ماجى) ياملاكى! .. أقسم إننى سأمزقهم جميعا ..!
سأذبحهم وسأثر أشلاءهم فى بحر الشمال، كى تتلذذ بها
الوحوش الغامضة جميعا ..

شرعت ألهث وأنا أجرى خلف آثار الخطوط التى
تركتها .. وقطرات الدم التى تظهر حيناً وتختفى أحياناً ..
أفكارى مضطربة والهلح يشلنى .. وأنا ألهث من بين
أسناني عبارات السباب والتهديد (لهم)، وأنا لأبصر من
(هم) بالضبط .. كنت أريد أى شيء أصب عليه غضبى، فلم
أجد خيراً من أن أوجد أشخاصاً وهميين لا وجود لهم كى
ألومهم ..

خطواتى تتسارع .. عضلاتى تتقلص .. أنفاسى تضيق ..
سأجدها مينة بلا شك فى أية لحظة عند أقدامى ..
وسأتحنى فوقها وأريح رأسها على ركبتي، فتقول لى
شيئاً ما لا أتبينه .. ثم تدير وجهها وتموت!
أه ..! .. إن تخيل هذا المنظر جعلنى أجن !! ..
وتتسارع خطواتى ودقات قلبى ..

وهنا اصطدمت بشيء .. وسقطنا على الأرض معا ..
نهضت مستعدًا للقتال لكنني وجدتني هي .. (ماجى) ...!
شرعت أصرخ في هستيريا والدموع تتسارع إلى عيني،
وحاولت أن أصر لها .. إلا أنها قالت في ملاطفة كما نحدث
حصانا جامخا :

- هيه ... لا شيء! لا تخف يا صغيرى ..! لم يحدث
شيء ..

وأشارت إلى يدها المربوطة بقطعة من قميصي الذي
ترتيبه :

- لقد جرحت يدي بقلمك المكسور .. هذا كل ما هنالك ..
هيا .. اهدأ ..

وهنا - أخرجتني من الاعتراف - انهارت أعصابي تمامًا
فشرعت أبكي كطفل .. مما أصابها بالذهول .. شرعت
ترتبت فوق كفتي بحنان .. ذلك الحنان الذي لا تمنحه سوى
امرأة، ولا يفهمه سوى رجل .. إنهن أمهاتنا هؤلاء
النساء .. ولسنا - مهما كبرنا - سوى أطفال شديدي
التعاسة، خرجنا لتونا من أرحامهن ..

- هيا ..! لا تخش شيئاً ..! كل شيء سيكون على
مايرام .. ابك! .. ابك! .. ستشعر أنك أفضل ..

وبعد أن زالت العاصفة، وبدأت أهدأ شرعت أحكي لها

ما فعلته طيلة الساعتين، وأنتى وجدت المخرج، وأنتى
فلنتها قتلت أو جرحت، وأنتى ... أحبها كما لم أحب أحدًا
في حياتي!

قالت لي في لهجة عملية :

- كل هذا جميل .. لكن هناك اكتشافًا أكثر غرابة وأهمية
وجدته أنا .. تعال معي ولكن أولاً ..

ومدّت إلي يدها بقطعة قماش مزقتها من قميصي الذي
ترتيبه .. وقالت :

- تمخّط أولاً .. لا أحب الأطفال الذين يتكلم المخاط على
أنوفهم! ..

- حسن .. فاففف!!

- هكذا ..

وفى صمت سرت خلفها في ذلك المحر الضيق
الغريب .. لقد بدأ يتسع .. ويتسع .. ثم .. وجدت نفسي في
غرفة كبيرة حجرية مضاعة بشكل جيد ..

هل تعرف منظر غرفة دفن الفرعون في الهرم
الأكبر ..؟ .. إنك إذا كنت تعرفها، فقد وفرت على مجهود
وصف تلك الغرفة .. أما إذا لم تكن قد رأيتها، فلتك
مشكلتك .. إننى منفلعل ولن أستطيع أن أتكلم كثيرًا! ..



في ركن من الغرفة كانت هناك .. واقفة مصلوبة إلى الجدار ، تلك الفتاة الشقراء التي لا يمكن أن تكون إنجليزية ..

في ركن من الغرفة كانت هناك .. واقفة مصلوبة إلى الجدار ، تلك الفتاة الشقراء التي لا يمكن أن تكون إنجليزية .. وكانت منهكة تمامًا وعلامات ضرب مبرح على وجهها .. قالت (ماجى) في فخر :
- هوذا اكتشافي ..

ثم انحنت تجاه الفتاة كأنها تقدم أهدئا للآخر في حفل تعارف :

- أقدم لك الآتسة (إيريكسا سبجريد) القربان القادم لوحش (لوخ نس) !..

أصابنى الذهول .. إلا أننى بدأت أفهم ما هناك .. لهذا التفت نحو الفتاة المقيدة ، وسألتها وقد أعطاني رنين اسمها فكرة معينة :

- هل أنت دانماركية ؟!..

خرج صوتها محشرجا .. وبنجليزية كسيحة قالت :

- أنا نرويجية .. أدرس الأدب الإنجليزي في أندبرة ..

صاحت (ماجى) في حماسة :

- هل ترى ؟.. شقراء ومن أصل اسكتلندي .. اختطفها

ذلك السفاح إلى هنا .. وقبدها .. وأطعمها انتظارا لموعد

الغداء .. و...

بضيق قاطعتها :

- ألا ترين تأجيل هذه المحاضرة، حتى نفك قيود هذه
التصبة؟ .. لماذا لم تفعل ذلك؟ ..

قالت في بساطة:

- ليس معي أداة تصلح لك هذه السلاسل أولاً .. ثم ان
يدي مجروحة .. هل نسيت!؟

ثم ربتت على عضلاتي الهزيلة في سرور:

- والآن لنر ما سيفعله (بطلتي) مع هذه القيود .. هيا ..
فلنر ..

احتكن وجهي وشرعت أحاول فك هذه السلاسل دون
جدوى .. كل ما سأفعله هو تمزيق معصمي هذه البائسة،
التي أخذت تضغط على أسناتها وتتن ..

وبعد عشر دقائق كنت قد انتهيت تمامًا .. تمزقت كفاي
وسال الدم منهما، من ثم أطرقت برأسي خجلًا معلنا
الأجدوى ..

- دعني أحاول أنا ..

ومدت (ماجى) سن القلم الحبر في قفل السلسلة،
وشرعت تعبث هنا وهناك، حتى .. كليك! .. انفتحت حلقة
القفل في سلاسة .. وشرعت تفك السلسلة عن عنق
ومعصمي الفتاة النرويجية، وهي ترمقني بتشرف، قائلة:
- ليس في جعبتك سوى القوة الغاشمة .. وليتها تجدى!

جلست الفتاة منهارة على الأرض، وشرعت تحكي
قصتها ..

إنها - كما قلت آنفاً - طالبة لغات في (أدنبرة)، وقد
تعرفت شابًا من أصل نرويجي، قال إنه يدرس الطب
هناك، ودعاها إلى بيته، ثم إنه اختطفها بعد أن خذرها ..
ونقلها إلى هنا .. وحين أفأقت، وجدت نفسها مقيدة في
هذا الوضع، وأنه كان يطعمها بانتظام .. وينصحها أن تعد
روحها للقداء الأعظم، الذى يليق بأرواح أسلافها، والذى
سيتم بعد أسبوعين حين تمنح جسدها - سعيد الحظ - كى
بليتهمه وحش (لوخ نم).

- وهل كان موجودًا معك بانتظام ..؟

- كلا .. كنت أراه مرتين في اليوم خارجًا من ظلمات
القبو .. لا أدرى من أين يجيء وإلى أين يذهب ..
قالت (ماجى) فى تهكم:

- وهل هذا سؤال!؟ .. بالطبع يجيء من غرفة الجلوس
فى قصر أبى وإليها يعود .. لا بد أنه كان يزورك فى الفجر
وعند منتصف الليل، حين يخلو القصر من أصحاب
الأسئلة المحرجة ..

قلت لـ (ماجى):

- هل تظنين ذلك؟ .. وكيف كان يدخل القصر؟

- إنه لم يحتاج قط لدخول القصر ..

- ماذا تعنين؟ ..

- أعنى أنه كان هناك دائماً .. أعتقد يا حبيبتي (إيريك) أن هذا الرجل كان أزرق العينين، له شارب أصفر كث، وشعر أشقر طويل .. باختصار مثل الفايكنج كما نراهم فى القصص المصورة .

- بالفعل .. واسمه (أنفريد) ... (أنفريد هولشروب) ..

- إنه خادم عندنا فى القصر .. وكان يأخذ إجازات

كثيرة، يزور فيها (إنبرة) ..

- ولا بد أنه كان ينصب شباكه حولك، وحول تلك

التعسة (جوسلين) ..

قلت لها فى حيرة :

- وما الذى يجعل عندكم خادماً نرويجياً ..؟

- وماذا فى ذلك؟ .. إنه مهذب ومنظم، ويتحدث

إنجليزية راقية جداً .. وكان أبى يحب طابع وجهه

الاسكندنافى كثيراً ..

قلت لها :

- إن الخيوط تتجمع الآن ..

إن هذا الخادم كان يعمل عندكم .. وفى ذات ليلة سمع

محاورة بين أبىك والمرحوم (جولد) عن وحش

(لوخ نس) الذى كان الفايكنج يقدمون له القرابين .. ثم

برى البوق والغلادة والخريطة إياها ..

عندئذ يبدأ هذا الخادم يتبدل .. إننا لانعرف الظروف ولا

الملابس التى أدت لتحوله .. هل هو اعتزاز مجنون

بقوميته ..؟ .. هل هى معتقدات وثنية تحركت فى عقله

الباطن ..؟ .. هل هى رغبة فى العبث ..؟ .. هل هى رغبة فى

التميز ..؟ .. لن نعرف أبداً إلا منه ..

المهم أن الفكرة اختمرت فى عقله .. وهكذا .. يسرق

البوق والغلادة، ويصمم على استغلال هذا النفق السرى

- الذى وجده بالصدفة - فى مهمته الرهيبة ..

لقد كان أنكى منا حين دخل هذا النفق أول مرة .. ولم

ينس أن يؤمن الباب خلفه .. ثم أدرك أن النفق يوصله

لقرب صخرة الغداء .. عندئذ يقوم بنشر القضبان التى تسد

النفق لتوفر له مخرجاً دائماً .. ويبدأ فى خطف الفتيات

الشقراوات، اللواتى ينتمين إلى نفس سلالته .. ويحبسهن

هنا ..

إن النزعة الدرامية فى دمه، جعلته يعتقد أن وحش

(لوخ نس) لن يلتهم سوى نفس نوع الضحايا اللواتى كان

يلتهمهن فى الماضى .. الاسكندنافيات ..

حفيدات غزاة الشمال ..

وحين تأتي اللحظة - حسب حساباته - يقيد الفتاة للصخرة، ويقف عند قلعة (إيركهارث) وينفخ في البوق ..

عندئذ يخرج الوحش - الذي تذكر نداء الطعام القديم - ليمارس باقي عمله وتنتهي المساة ..

إنك قد ولدت من جديد يا أنسة (سيجفريد) ..

تهانفت الفتاة .. وأخذت ترتجف .. وتقول بين دموعها:

- لقد كان شنيعاً .. كان يأتيني وهو يردد أبيات شعر

بلغة لا أعرفها .. ويدس أطعمة غريبة المذاق في فمي ..،

ثم يؤدي صلوات عجيبة، ويجبرني على أن أرددها معه ..

فإذا رفضت صفعني ..

- إنه كان يعدّ روحك للتضحية الكبرى ..

قالت (ماجى) فى عصبية:

- والأآن لنخرج من هذا القبر المرعب .. لابد أن

(دادى) سيموت قلقاً علينا .. ثم إن علينا أن نجد هذا

السفاح قبل أن يشعر بشيء ..

ثم نظرت للفتاة فى حنان:

- هل تستطيعين السير معنا يا حبيبتي؟

- لا .. إن قدمي مبتتان تماماً .. لم أحركهما منذ زمن ..

أشارت إلى (ماجى) وغمزت بعينها نحو الفتاة ..،

اقتربت منها، وهمست فى أذنها:

- (ماجى) لا تقولى إنك تريدان أن أحملها ..!؟

- ولم لا ..؟.. أنت رجلنا الوحيد للأسف ..

- ولكنها ثقيلة كالحوت .. لماذا لا تصدقن أنني لست

(طرزان) ..!؟ فى الأفلام الرديئة فقط يكون هناك رجل

مفتول العضلات، عريض المنكبين، يجيد توجيه اللكمات

وفك السلاسل، ومصارعة الدببة، وحمل الفتيات اللواتى

لايستطعن المشى ..

- (رفعت) ..!.. احملها ..!

- حسن ..

وهكذا حملت الفتاة ومضيت بها أترنج، و (ماجى)

تسير خلفنا .. على هدى العلامات التى رسمتها هى حتى

نقطة التلاقى .. ثم على هدى الخطوط المتعرجة التى

رسمتها أنا، حتى النافذة الحجرية ..، ولم يكن صعباً

النزول على الصخور ومعنا الفتاة ..

كان بحر (لوخ نس) متلاطم الأمواج .. ومن بعيد لاحت

لأعيننا الصخرة المشنومة إياها .. أشارت إليها (ماجى)

ونظرت إلى الفتاة نظرة معناها: هل رأيت ماكان

ينتظرك ..؟

ارتجفت الفتاة وتصلبت أصابعها على ذراعى ..

لقد ربحتنا المعركة، ولكن هل نربح الحرب أيضاً؟!؟

★ ★ ★

٩ - إيوان فريزر ..

كانت وجبة طعام شهية، تلك التي قدمها لنا السير (جيمس) بعد خروجنا من القبو، وكانت (إيريكيا) المسكينة تلتهم الطعام كالمسعورين، في حين أخذت (ماجى) تعبت في الزبد بسكين الطعام، راسمة أشكالا ما على حافة طبقها .. كانت شاردة الذهن تماما .

قال السير (جيمس) وهو يشعل سيجارا :

- كلوا هنيئا .. انكم قد نجوتم بأعجوبة ..

قلت وفسى ملء بالطعام :

- غريب أنك لم تعرف شيئا عن هذا النفق .

- هذا طبيعي .. إن مخطوطات أسرتنا تتحدث عن عشرة أنفاق أخرى .. ولم تحدد أماكنها، كما أنها لم تتحدث عن كنز مدفون في أحدها، فعلام أضيع وقتي إذن ..؟

رفعت (ماجى) رأسها عن الطبق كمن تذكرت شيئا ما :

- دادى .. أين ذهب (أنفريد) ؟

هز السير (جيمس) رأسه في ضيق .. ونفت الدخان

من فمه :

- لم نجده .. فر الوغد ليلة أمس ..

قلت في حيرة :

- ولكن كيف عرف أننا كشفنا أمره !؟

- أنا ..

قالتها (ماجى) في شيء من الخجل .. ثم مدت يدها إلى جيبها وأخرجت شيئا .. بطاقة صغيرة من السورق المعقوى .. وقالت شارحة :

- لقد لاحظتها بالأمس عند نزولنا النفق .. لكنى لم أعبأ بها ..

أه! .. إنها تلك الحيلة القديمة .. لقد دسّ الوغد هذه البطاقة في شق الحائط، حتى إذا فتح أحدهم الباب، سقطت البطاقة .. عندئذ إذا أراد دخول النفق، ولم يجد البطاقة، يدرك أن أحدهم اكتشف النفق والفتاة ..

لهذا لم يقدم العشاء لـ (إيريكيا) أمس .. كان على وشك نزول النفق حاملا عشاءها، حين وجد أن الورقة غير موجودة .. عندئذ عرف أن أمره اتكشف وولى الأدبار .. قالت (ماجى) :

- ولكن .. ما الذى سنفعله الآن ..!؟

أحنى السير (جيمس) رأسه مفكرا .. وبغموض تتمم :

- هو لن يكف عن المحاولة .. لم يزل معه البوق

والقلادة والحلم المخبول ..

- إنن نبلغ البوليس ليراقب الصخرة ..

تفكر حيناً ، ثم قال :

- كلا .. ثمة فكرة أفضل ...

قلت وأنا التقط آخر قطعة لحم على المائدة ، وأقذفها فى

لمى :

- هذا خبر طيب .. فإن رأسى يكاد يتفجر من الأفكار

غير الجيدة ..

قال السير (جيمس) فى غموض :

- سأعرفكما الليلة على شخص نادر من نوعه ...

★ ★ ★

قال (ايوان فريزر) :

- إن عدد المعتهين فى هذا العالم قد فاق تعداد

البشرية نفسها ..!

هز السير (جيمس) رأسه موافقاً ، وقد بدا لى أنه لم

يفطن إلى ما فى هذه العبارة من إهانة مستترة للجميع بما

فيهم هو نفسه ..

واصل (فريزر) كلامه :

- خذ عندك هذا المعته (انغريد) الذى يعتقد أن كرامة

أسلافه ، تتوقف على إلقاء الفتيات ليمزقهن هذا الوحش ..

كان (ايوان فريزر) رجلاً قوى العضلات ، أسمر

البشرة ، له لحية شقراء مشعثة ، وخصلات ناثرة تحيط

برأسه .. وكانت نظراته وقحة وصارمة إلى حد مزعج ..

وكان يأكل فى عصبية لا ميرر لها ..

فى وجبة العشاء ، قدمه لنا السير (جيمس) على أنه

صديق قديم ، وأنه يجيد كل فنون الصيد .. لقد كان صياد

أسماك قرش يوماً ما ..

- صياد أسماك قرش ؟

- .. وحيتان ..

- وحيتان ؟ ..

- ونمور ..

قال السير (جيمس) فى انبهار كالأطفال :

- لقد اصطاد التماسيح .. وذهب للهند من أجل

التمور .. واصطاد الأفيال فى إفريقيا ، قبل أن تحرم

السلطات صيدها ..

.. نقر (ايوان) بإبهامه على صدره فى فخر .. وقال :

- الواقع أننى لم أترك شيئاً يمكن صيده إلا وحاولت ..

ثم بدأ يحكى لنا بعض القصص عن صولاته وجولاته

فى أحراش إفريقيا ، وحقول السافانا ، وأعالى البحار ..

لقد اصطاد كل شيء من العصافير حتى الحيتان ، وإن

خبرته بالأسلحة والمقدوفات النارية لا تقدر بثمن ..

وأنا لست غيورًا ..

لم أكن أبداً من هؤلاء الذين يحبون ألا ينصب الاهتمام على سواهم .. إلا أنني شعرت بغصة في حلقى وأنا أرى علامات الانبهار على وجه (ماجى) ، وهي تشرب كل كلمة وكل حرف من كلماته .. لقد حملها معه بكلماته إلى حوض الأمازون ، وإلى غابات الكونغو وسهول الصين .. وكانت تحلم ..

لست غيورًا أبداً ..

لكنى أمقت أمثال هذا الوحش الساذج ، الذى يستمتع بتعذيب مخلوقات الله الجميلة ... فلا ينام قرير العين ، إلا بعد أن يتأكد أن حيواناً آخر لن يرى الشمس غداً .. و ... (ماجى) تحب هذا ..
كان يقول :

- إن هذا الوغد (أنفريد) يستحق أن يمزق برصاصة .. ثم تسحق جثته .. وتقدم لطعام الكلاب فى حديقة دارى ..! حتى فى حماسته للخير يبدو شريزاً كالشيطان ذاته .. كيف لم تلحظ (ماجى) والسير (جيمس) هذا؟! ..
انحنيت نحو (ماجى) وهمست فى أذنها :
- لماذا أحضر أبوك هذا السفاح ها هنا؟! ..

لم تزد لأنها كانت منصتة له ، وقد التمتعت عينها .
وانفجرت شفتاها قليلاً :

- (ماجى) ..!

التفتت إلى فى حيرة كأننى أيقظتها من حلم رابع ..
وتساءلت :
- ماذا؟! ..

- لماذا أحضر أبوك هذا السفاح هنا ؟

همست فى ضيق :

- أعتقد أنه لا يوجد سوى تفسير واحد ، ولا أظنك بهذا الغباء .. والآن دعنى أصغ ، لأن كلامه يؤثر اهتمامى بالفعل ..!

ثم عادت تصفى لكلماته بكل جوارحها ..

ارتشفت كوب العصير الذى كان أمامى ، وأنا أشعر أن كل ما فى الكون من عصائر لن ينجح فى إطفاء ظمئى ، وإزالة المرارة التى فى حلقى ..
وانتهى العشاء ..

مسح (إيوان) فمه بالمنشفة فى فظاظة .. ثم أعلن أنه يجب أن ينصرف ، على أن يعود باكراً لمناقشة (الأعمال) كما قال ... وصافح السير (جيمس) وصافحنى - بيد كأنها منحوتة من صخر - ثم تناول يد (ماجى) .. وانحنى يطبع عليها قبلة وعيناه لا تفارقان عينها ..

إن (فريزر) سيقدم لى مجدى العلمى - وثمرة
صراعاتنا - على طبق من ذهب..

- ولكن - حتى إذا قبلنا هذا - كيف يستطيع قتله ؟
- تلك هى مشكلته ..

ثم ابتسم وغمز لى وهو يخرج من القاعة :

- وثق بأنه سيجد لها مخرجاً !..

★ ★ ★

لم أحاول أن أجادل كثيرًا، لكنى كنت أومن بأن وحش
(لوخ نس) يستحق حياته، بعد أن عاش ثمانية قرون حرًا
طليقًا، تمر به الأجيال... ثم إنه ليس شريرًا أكثر من أسد
لا يأكل سوى اللحم، ولا ذنب له فى ذلك.. إذا ألقى أحدهم
بإنسان إلى هذا الأسد والتهمه.. عندئذ هل نعاقب الأسد أم
المجرم الذى هيا له ظروف الافتراس كاملة ؟

على أن هذا كله كان سابقًا لأوانه، لأنى أشك فى أن
يكون هذا المدعى قادرًا على إبداء ما هو أكثر شراسة من
الأرانب البرية..

إنهم يحاولون صيد هذا الوحش منذ عام ١٩٢٣..
وكلهم فشلوا.. فما الذى يجيد (إيوان فريزر) عمله،
ويعجز عنه كل هؤلاء الذين سبقوه ؟

★ ★ ★

ثم إنه اتحنى، وانصرف..
قلت للمسير (جيمس) فى رعب بمجرد أن انغلق
الباب :

- سير (جيمس).. لا تنقل إنك ستتفق مع هذا الحيوان،
على قتل وحش (لوخ نس) ؟
هز كتفيه فى لامبالاة، وقال :
- إننا لم نتفق على شيء بعد، لكن قتل الوحش هو
ما أريده منه فعلاً..

- ولماذا ؟..

نظر إلى فى دهشة :

- هل لديك حل آخر ؟..

- نعم.. ما شأننا نحن بكل هذا ؟.. إم لانبلغ البوليس
وينتهى الأمر ؟..

وضع يده على كتفى فى صبر كأنه يعظ خاطلنا فى
محراب، وقال :

- يابنى.. إن قتل الوحش يعطينا فرصتين..
عصفورين بحجر واحد.. أولاً هو سينهى سلسلة
القرابين التى لابد أنها ستستمر طالما ظل (هولشروب)
طليقًا.. ثم إنه سيحقق حلمنا العتيد.. ستكون لدينا جثة
(لوخ نس) كاملة سليمة، كى يراها العالم ويشرحها
العلماء ويحفظها أصحاب متحف التاريخ الطبيعى..

في الصباح ذهبت لـ (ماجى) فى حجرتها ..
 كانت الحجره مفتوحة .. وعلى المنضدة جلست
 (ماجى) وحول أذنيها شيء يشابه جهاز (الهيدفون) ..
 وأمامها أدوات نحت كامله .. ومجموعه معقدة من
 الأسلاك، وجهاز ميكروفون معلق على بعد سنتيمترات
 من فيها ..

وكان هناك جهاز معقد، يشابه أجهزة رسم القلب،
 يخرج منه شريط طويل من الورق، عليه خطوط متعرجة،
 وبجواره ترموس قهوة وكوب نصف ملئ ..
 وما إن رأته حتى رفعت كفها محببة دون كلام ..
 قلت فى فضول:

- (ماجى) .. ما هذا الـ

فأوقفتى بنظرة من عينيها .. وأشارت - بعتاب - إلى
 شريط الورق الذى أخذ يتحرك خارجاً من ذلك الجهاز،
 وعليه خطوط كثيرة متعرجة ومتكسرة ..
 الآن فهمت ..

إنها تجرب جهازا معقدا يحول نبضات الصوت إلى
 رسوم (فونوجرام)، يسهل تحليلها وقياسها .. ولكن
 ماجدوى هذه التجربة، وما الذى يدفعها فى هذا الوقت لكى
 تتذكر أنها فيزيائية ؟



كانت الحجره مفتوحة .. وعلى المنضدة جلست (ماجى) وحول أذنيها
 شيء يشابه جهاز (الهيدفون) ..

وهنا رأيتها تتناول شيئاً طويلاً أبيض كالبيوق، وتقربه من فيها ثم تنفخ فيه أمام الميكروفون .. لا شيء لا صوت .. إلا أن الشريط أخذ يزحف خارجاً من الجهاز، وقد امتلأ بالخطوط المتلاصقة ..

مدت يدها إلى زر بالجهاز وأطفأته، ثم نزعت (الهيديفون) عن رأسها وهي تتنهد الصعداء .. ثم صبت لنفسها بعض القهوة في الكوب، وناولتني الترموس وكوبا آخر :

- اشرب! .. ساعد نفسك لأنى مشغولة ..

قلت وأنا أجلس، وقد فهمت أن (حظر السؤال) قد انتهى :

- لا أريد .. والآن ما الذى تفعلين ؟

- كما ترى ..

أمسكت بالبيوق الذى صنعته بين أناملى، وتأملته معجباً :

- إنه جيد الصنع ..

- شكراً .. احترس حتى لا تتعثر فى هذه الأسلاك ..

- من أين جئت بالعاج الذى قمت بنحته ..؟

- إنها قطعة أعطانيها (إيوان فريزر) أمس ..

- يا له من لطيف !

قصت (ماجى) قطعة الورق المرسومة عليها الخطوط الأخيرة .. ثم نهضت واتجهت إلى قطعة من الورق الشفاف، مرسومة عليها خطوط مماثلة، معلقة بجوار فراشها .. ووضعت القطعتين فوق بعضهما ..
- ما رأيك ؟!

كانت الخطوط المتعرجة تتطابق تماماً فى الورتقتين .. لكنى لم أفهم شيئاً .. لهذا سألتها فى حيرة :

- رائع .. ولكن ما معنى هذا ؟

فأفهمتنى فى حماسة: أن الورقة الشفافة تحوى نذبذبات الصوت، التى كان يحدثها البيوق القديم المسروق - بيوق الفايكنج - أما الورقة الأخرى، فتحوى نذبذبات بوقى الذى قضيت الليل أتحتة، محاولة الوصول إلى تردد وطول موجاته ..

إنهما يتطابقان تماماً ..

ثم قالت فى فخر :

- إن هذا يعنى أنها أعادت صنع البيوق الذى يستدعون به وحش (لوخ نس) ..

- ولكن لا صوت له على الإطلاق ..

- كلا .. إنها نذبذبات ذات تردد عال جداً يفوق قدرات الأذن البشرية، لكن أذانا أخرى تسمعها .. مثل صفارات الكلاب تماماً ..

إن وحش (لوخ نس) يعرف هذه الذبذبة وينظرها ..
- لو كان هذا صحيحا لاقتحم علينا الغرفة الآن، وهو
ببصيص بذيله كالكلاب .. فلا بد أنك نغخت في هذا البوق
عشرات المرات ..

ضربتني بقبضتها في كنفى بدلال، صانحة :

- لا تكن سخيفا .. إن مدى صوت هذا البوق لن يصل
للبحيرة إلا إذا نغخنا فيه عند قلعة (إيركهارت) ..
وتأملت البوق في انبهار شديد .. انبهار المثل بتمثال
رائع انتهى منه لتوه، وقالت :

- هكذا يمكننا أن نستدعي (نيسى) وقتما يشاء (إيوان)
كي يقتله .. لقد أنهيت مهمتى، ولم يبق سوى نحت
القلادة ..

وفتحت كتابا أمامها، أخرجت منه ورقة مرسوما عليها
بالقلم الرصاص - عن طريق التظليل - نسخة طبق الأصل
لقلادة الغداء المسروقة .. رسم خشن يصور تينا يلتهم
فتاة وهي تنظر إلى السماء .. وحولها حروف مزخرفة
لا تتم عن ذوق جيد ..

- (رفعت) !.. سأكون بحاجة لعونك، فأنت تجيد الرسم
والنحت .. علينا أن نصنع قلادة برونزية تماثل تماما هذا
الرسم ..

- بكل سرور .. ولكن ما الداعي إليها ..؟

قالت وكلها دهشة من حماقتى :

- أحيانا لا أفهمك يا (رفعت) ..

كيف يفترسنى وحش (لوخ نس) إذا كنت لا أرتدى
قلادة الغداء !؟

★ ★ ★

١٠ - خطتنا يجب أن تنجح ..

فرد (إيوان فريزر) على المنضدة لغافة الورق التي يحملها .. وأشار إلى نقاط حمراء متناثرة هنا وهناك، مستعملاً طرف سيجارته المشتطة كمؤشر ..

- هاهي ذى ..!.. شبكة كاملة على عدة أعماق من الألغام البحرية الفذرة .. تكفى لمسة واحدة لزر المفجر، كي تتطاير أشلاء هذا الوحش فى الفضاء .. سنمرح كثيرا .. هى هى هى!

قال سير (جيمس) فى زعر :

- لحظة أيها السفاح ..!.. نحن لانريد قتل الوحش فقط، بل نريد قتله والاحتفاظ بجثته سليمة لغرض البحث العلمى ..

مصغ (فريزر) سيجارته، وقد بدا عليه الإحباط .. واستترك :

- نعم .. بالفعل!.. ثم إن الانفجار سيفتت المرأة أيضا ..!

هكذا ..!.. هذا الوحش اللفظ يقول عن حبيبتي الرقيقة (ماجى) .. المرأة .. خطأ إنه لا يملك ذرة لياقة .. وليس - على أية حال - ذكياً ..

شرح الرجل يهوش رأسه دقائق، ثم قال :
- الواقع أننى لأجد حلاً يقتل هذا الوحش، دون أن يمزقه .. تقول لى إن طوله ١٢ متراً ..!؟..

- نعم .. هكذا قالوا :

- هذا كثير .. هممم!

ثم قال بعد تردد :

- الواقع أن هناك حلاً غير مرض .. هو أن نجتذبه ليقترب، ثم نصوب خراطيش قوية - مثل تلك التى نستعملها فى صيد الخراشيب - إلى مقآتله .. إلى عينيه وما بينهما وحلقه ..

قال سير (جيمس) :

- لكن هذا يجعل الخطة كلها تتوقف على رد فعلنا لحظة خروجه من الماء، وعلى دقة تصويبك .. ثم إنه بالقطع سيتلوى ويثور، ولن نأمن ضربة من ذيله - إذا كان له ذيل - تطيح بـ (ماجى) أو تمزقها ..

صحت فى غضب حقيقى :

- لازلتما تتحدثان كأن (ماجى) ستقبل فعلاً أن تقف فى موقف الضحية أمام الوحش .. إننى أرفض .. وأمنعكما بشدة ..!..

نظر (إيوان) إلى وإلى السير (جيمس) نظرة معناها

- بوضوح - ماذا دها هذا الأبهة ؟!، أما السير (جيمس)
فإنه نظر إلى في حزم ، وقال :

- د . (إسماعيل) .. إن قبول (ماجى) أو رفضها ليسا
من شأنك .. إنها هي الوحيدة صاحبة القرار .. إنها تعرف
أننا بحاجة لدورها .. وتعرف أننا لن ندع شراً يعمها ، فلا
تلعب دور العاشق الحنون على حساب رصيد حبى لها
كأب ..

بمعنى آخر .. لست أنت الوحيد الذى يحبها فى هذا
العالم ..

صاحت (ماجى) محاولة تهدئة الموقف :

- (رفعت) .. أرجوك .. أنا أقبل ذلك ، بل وأرحب به ..
صحت وقد أوشكت على البكاء ، خاصة أن السير
(جيمس) لم بغضب على هكذا قبلاً :

- (إن لم لا تقدمون له تلك الفتاة (إيريكا) ..؟ أليست
من أصل اسكتلندى فى محبه هو ؟

قالت (ماجى) :

- إن البانسة لن تتحمل أية تجربة قاسية أخرى .. أما
أنا فأتحمل ..

وقال (ايوان) وهو ينظر ناحية (ماجى) فى ثقة
وخبت :

- ثم إن الوحش لن يغرق بين فتاة اسكتلندية ، وفتاة
اسكتلندية .. إن الفتيات يتشابهن جميعاً ..!
بالك من خنزير ..!

★ ★ ★

وبدأت ألقى أيام حياتى ..

كان (ايوان) يقيم عندنا ليلاً ونهاراً تقريباً ، ورائحة
أنفاسه العطنة تلاحقنى ، وعباراته اللفظة التى يغازل بها
(ماجى) - أو يظن أنه يغازلها بها - تثقب مسمعى ..
والسير (جيمس) يرحب .. و (ماجى) تبتسم .. وأنا
أحترق !

لقد تغيرت (ماجى) كثيراً ..

لم أعد أرى نفسى فى عينيها ، وأعرف - فى هلع
حقيقى - أنني قد بدأت أفقدتها ..!
لقد كان هذا خطئى ..

لقد أحببتها حباً هائلاً منتظماً كالنهر الراكد .. لاجديد
فيه ولا مفاجى .. (إننى فقدتها فى اليوم الذى عرفت هى فيه
يقيناً أنها لن تفلتنى !!، أما (ايوان) فهو الخيال ذاته .. هو
البحر المتقلب الثائر ، الذى لن تعرف أبداً ما إذا كانت راقته
له من عدمه ، ولن يكف عن إحباطها وإثارة قلقها ..
إن حبى الممل .. وإخلاصى الأبدى .. وانبهارى الخالد

بها، هي الأسباب التي جعلتها تفلت كالماء من يدي...
والنساء لا يستغنين عن المحب المنبهر متقطع الأنفاس
خلفهن، لكنهن يردن - بالفعل - ذلك الوغد الوقح اللفظ،
الذي لا يعبرهن اهتماما كي يمشى أمامهن.. وليكن هذا
درسا لي في قصصي التالية، إن وجدت..

عاد (ايوان فريزر) إلى القصر حاملاً لفافة كبيرة..
وعلى المائدة الموجودة في قاعة الطعام أفرغها - أمام
نظرات (جراهام) كبير الخدم المشمزة - ليرينا ما فيها
من عجائب.. وكانت هناك زجاجتان كبيرتان مليئتان
بمسائل ما، وقد تم لحام قاعدة كل منهما بشيء يشبه
السهم..

- والأن ترون أحدث ما وصلت إليه..

ثم شرع يشرح لنا الفكرة. إن هذه الزجاجات مليئة
بحمض الكبريتيك المركز ومجهزة بحيث يمكن تركيبها في
فوهة بندقية الأعماق..

- وعند خروج الوحش فاغراً فاه نقوم - أنا والأخ -
بإطلاق هاتين الزجاجتين على فمه.. ستفجران فوراً
بالداخل وتحثان قروخاً وحروفاً مروعة قد تقتله على
الطور.. نون أن يصاب بأذى في جسده..

- وقد لا تقتله..!

قلتها في شك وبرود... فقال لي بلهجة ساخرة:
- عندئذ.. مستهداً حماسه ويفوص في الأعماق إلى أن
نحدر المرأة ونفكر في فكرة أخرى..!!

أبدي سير (جيمس) حماسه للفكرة، وأيدته (ماجى)
أما أنا فقد كان رأيي واضحاً أن مجزرة ستحدث نتيجة
اقتراح هذا المعتوه.. إن (نيمى) لن يموت قبل أن يقلب
البحيرة رأساً على عقب، ويقتلع الصخرة وعليها
(ماجى).. ويفترسنا جميعاً.. و... و...
- اسمعنى يا أخ.. إما أن تقول فكرة أفضل أو تصمت..
فصمت..

وهكذا اقترب اليوم الموعد..

ويقلب جريح وروح قلقة، شرعت أعد القلادة
البرونزية المشنومة التي سترتديها حبيبتي - السابقة -
حين تقدم نفسها لوحش (لوخ نس)..

وشرعت أتدرب مع (ايوان) على استعمال البندقيتين
الخاصتين بالأعماق، وعلى تركيب ونزع زجاجات
الحمض الحارق من فوهات بندقيتهما..

وعلمنى (فريزر) أن أطلق بندقيتي، ثم أترجع لأعيد
حشوها، في الوقت الذي يطلق هو فيه بندقيته.. وهكذا
لا يتوقف سيل الزجاجات الحارقة لحظة..

الأكلف، لغتيات في عمر الزهور، سبقنها ها هنا منذ ثمانية قرون ..

ثم قام (ايوان فريزر) بربطها - رباطا صوريا غير محكم - إلى العمود الخشبي، وتأكد أنها بحركة بسيطة تستطيع تحرير يديها والفرار في أية لحظة تريد ..
ثم إننا تركناها واقفة .. وحيدة .. عزيزة إلى نفسى ..
شجاعة ..

ونزلنا إلى القارب .. وأوصلنا السير (جيمس) إلى صخور الشاطئ المجاورة لقلعة (إبركهارت) .. ثم عدنا - أنا و (ايوان) - إلى الصخرة حيث اختبأنا في القارب وعينانا على (ماجى) .. أعنى على شبحها الواقف وسط الضباب ..

وكان على السير (جيمس) أن ينفخ في البوق، حين تصير الساعة الثانية عشرة تماما ..
في صمت نعد بندقيتنا .. ونرص زجاجات الحامض في قاع الزورق .. (ايوان) متوتر تماما لكنه يدارى ذلك بقناع من ثقل الدم والتعالى .. أما أنا فيكاد قلبي يثب من فسى لو جرؤت وفتحته .. لهذا أصمت ..

كان الضباب باردا ثقيلًا كالكابوس، وكان هناك طائر شوم لا أعرف نوعه، يحوم حول الصخرة في دوائر متلاحقة ... في حين أخذ القارب يتأرجح ..

- كلما آلمت الحروق الوحش، فتح فاه أكثر ..
سيكون التصوير أسهل عندئذ ... سيكون مع كل منا أربع زجاجات فحافظ عليها ..
الواقع أن (فريزر) لم يكن سيئا إلى هذا الحد .. فقد علمنى الكثير بالفعل ... ثم إنه لم يتقاض مليئا من السير (جيمس) مقابل مجهوداته .. لقد كان حبه للتدمير خالصا بلا أى غرض (دنيوى) .. إن فكرة قتل هذا الوحش قد أنسته كل المطامع المادية، وقشور حياتنا السطحية !!
وجاء اليوم ..

★ ★ ★

وأخيرا جاء المشهد الذى بدأت به قصتى ..
نحن الأربعة في قارب يتأرجح بين أمواج البحيرة، متجها نحو صخرة القرابين المشنومة .. والضباب يغمر سطح الماء ويجعل الرؤية عسيرة تماما، مما سيجعل مهمة التصوير شديدة التعقيد ..
(ماجى) ترتدى الغلادة فى صمت، وتلك دبوس شعرها كى تتناثر خصلاته الشقراء على كتفها ..

السير (جيمس) يتأكد من ثباتنا وإصرارنا على الاستمرار - ما عدائ بالطبع - ثم يساعد (ماجى) فى الصعود للصخرة، التى تناثرت عليها عظام عشرات

أشعل (إيوان) سيجارة. ومد يده إلى حقيبته، فأخرج منها كشافاً يخرج منه سلكان .. ثم بطارية سيارة، أوصل بها طرفي السلكين مستعملاً (بنسة) صغيرة، وأضاء الكشاف. فانبعث نور أصفر كنيب، نجح في إزالة الضباب حول الصخرة، وبدت لنا (ماجى) واقفة وهى تضيق عينها من أثر الضوء .. وكان موقعنا فى الماء على بعد عشرين متراً من الصخرة:

- مصباح فوسفورى .. إنك لا تتسى شيئاً ..

قلتها له فى إعجاب .. فقال وهو يرمى السيجارة فى الماء بعد نفس واحد منها، لأن أعصابه لم تتحمل المزيد من الدخان:

- بالطبع .. إن الضباب يفسد تسعين فى المائة من الخطط المحكمة .. هذه حقيقة ..

- المهم الآن ألا يتعكر مزاج الوحش، لأنه لم يعد هذه المؤثرات المسرحية على مائدة العشاء ..

قال (فريزر) وهو يشعل - لاشعورياً - سيجارة أخرى ..

- لا أظن .. ولا أعتقد أنه سيلحظ الضوء أساساً ..

ثم نظر إلى ساعته، وهمس بقلبي:

- بقيت ثلاث دقائق ...

الطائر يحوم حول الجزيرة أحياناً، فلتتمع عيناه الشريرتان فى ضوء الكشاف، ثم يخرج من دائرة الضوء ليصير مجرد ظل مرفرف فى السماء القاتمة ..

القارب يتأرجح فى ببطء ..

دخان السيجارة ودقات قلبى .. وحلقى الجاف ..

قبضة (إيوان) تتوتر على البندقية ..

الآن أرى - بعين الخيال - السير (جيمس) واقفاً فى

الظلام عند قلعة (إيركهارت) برفع البوق العاجى إلى

فمه .. وينفخ ..

تباً لهذا الصمت ..!

هذا الصمت المشنوم الذى تكاد تسمع له ضجيجاً يدوى

فى أذنيك، ويكاد يخرقها .. صمت له كيان ملموس ثقيل ..

و ...

صفحة الماء تتحرك ..

تصلبت قبضتى على البندقية ..

شئ أسود ضخم يرتفع من البحيرة والماء يتساقط منه

والأمواج تتور وتتعالى ..

فى ببطء وثقة ينفذ عن نفسه قطرات الماء ويتحرك ..

الآن نرى ذلك الشئ .. الرأس والعنق .. والعينين ..

وسمعت (فريزر) يهمس حتى أن السجارة سقطت
منه:

- باللهول !!

كانن أسطوري خارج من كتب التاريخ الطبيعي، ومن
أساطير الفايكنج، يرفع رأسه فوق سطح مياه البحيرة،
ويتقدم من الصخرة.. العنق طويل كعنق الأفعى.. الرأس
عملاق تلتنع فيه عينان ناريتان.. ثم معرفة الحصان التي
تحدث عنها الشهود ولم تصدقها مسز (جولد)..

لم يكن قد دخل دائرة الضوء بعد، لكنى كنت أرتجف
هلعاً من أن أرى بوضوح وجهه المريع، الذى عرفه غزاة
الشمال تماماً..

رفعت بندقيتى تجاهه، إلا أن يد (فريزر) المرتجفة
أمسكت بيدي، ولأول مرة لمحت الرعب فى عينيه
الوقحتين، وهو يهمس:

- لا تطلق.. لقد أجهضت خطتنا !!..

.. ماذا؟

- إن حساباتى خاطئة.. لن يجدى مع هذا الشيء سوى
(الطوربيد).. فلا تنر هياجه.. عملية فاشلة..

.. ولكن...

- إن تأثير قذائفنا.. لن يحدث سوى ما يحدثه كوب من

رفعت بندقيتى تجاهه، إلا أن يد (فريزر) المرتجفة أمسكت بيدي..

الشاي الساخن فى لسانك .. سينثور .. ويفتح أبواب الجحيم
علينا وعلى المرأة ..

ثم بدأ يتحرك بالمجذاف تجاه الصخرة ببطء وحذر ..
وكان الوحش يتقدم بنفس السرعة والتؤدة من الجهة
الأخرى، أخرج (فريزر) سكيناً من حزامه، وهمس وهو
يقذفه إلى :

- حاول أن تحرر الفتاة .. سأراقب ظهرك من هنا ...
غد بها وسنعود للشاطن بأقصى سرعة .. إن هذا الشيء
ثقيل الحركة أو هذا ما أرجوه ..

وثبت - حاملاً بندقيتى - إلى الصخرة .. إلى المسرح
المعد للمأساة، وألقيت نظرة على المشهد الرهيب، الذى
ستره الضحية .. أى رعب وأى هلع كانت تشعر به الفتاة
المقيدة، وهى ترى ذلك الشيء الأسطورى يتجه نحوها
هى ..؟! .. لم يزل بعيداً لحسن الحظ .. لهذا جريت خلف
(ماجى) وشرعت أمزق قيودها بالسكين، دون أن تسألنى
عن شيء .. عيناها مثبتتان - كالمنومة مغناطيسياً - على
الوحش الذى يتقدم رافقاً رأسه من الماء فى صمت نحوها
هى .. هى ...

- (ماجى) يا حبيبتى .. لن نحاول أكثر .. لقد أدركنا
قصورنا ..

(ماجى) .. اننى ..

وهنا - وقبل أن أفهم ما حدث - وثب فوقى خيال أسود
من إحدى الحفر الموجودة فى الصخرة .. والتحم معى
محاولاً انتزاع السكين من يدي، وهو يسبى بلغة
لا أعرفها .. اتخذت وضع المقاومة تلقائياً، ووجهت له
لكمة قوية بمؤخرة البندقية فوق رأسه .. ثم ركلة محمومة
فى أسفل بطنه ..

لكن الوغد كان قوياً .. وسرعان ما استعاد توازنه،
ووجه إلى ركلة أقوى من ركلتى فى بطنى، جعلت أننى
تصفر والهواء يندفع من فمى، لكنى - لحسن الحظ - لم
أكن أملك ترف الإغماء ..

صاح من بين أسنانه بالإنجليزية وهو يرفس السكين
من كفى:

- يا أولاد الشياطين! .. إنكم ستفسدون كل شيء !!
وهنا سقط الضوء على وجهه .. فلمحت شاربه
الأصفر، وشعره الطويل .. لم أحتج لإضاعة الوقت كى
أعرف من هو .. (أنفريد هولثروب) .. (أنفريد) الذى
اختبأ طيلة الوقت فوق الصخرة - فى هذه الحفرة - منتظراً
كى يرى ما سنفعله .. وفى هذه اللحظة الحرجة يعلن عن



أخذت وضع المقاومة تلقائياً ، ووجهت له لكمة قوية بمؤخرة
البنديقة على رأسه ..

وجوده بأثر من الطرق .. والأسوأ أنه استطاع أن يقتزع
منى المسكين .

تأملت وجهه المسعور المجنون ، وأسنانه البيضاء
التي يكشف عنها كالذئاب ، وأدركت أنني لن أهزمه أبداً ..
ولكن أين (فريزر)؟! ..

- إنكم ستثيرون غضبة (أودين) أيها الحمقى! ..
لا تحاول حرمان الوحش من القربان أيها الكلب
الإنجليزى! ..!!

إن الوحش يقترب من الصخرة ..

لا وقت لدى .. لكن (ماجى) منبهرة تماماً ، ولن تكون
ذات عون لى .. وهذا المتعصب يلوح بالمسكين فى وجهى ،
وقد بدا لى أنه يعرف هذا السلاح جيداً ، وسيستخدمه
كأفضل ما يكون .. لا يوجد خيار لئى .. صحت :

- .. والآن يا بنى لم يعد لدى وقت .. لقد أردت ذلك !
وضغطت على زناد البندقية فانطلقت زجاجة الحمض
الحارقة نحوه من مسافة لا تتجاوز أربعة أمتار .. انفجرت
الزجاجة فى وجهه وجسده وتناثر رذاذها على .. وسمعته
يصرخ كأنسان يتعذب فى أعماق الجحيم .. وزأبته يتلوى
راقصاً رقصه الأثم المجنونة .. وشمعت رائحة اللحم
المحترق ..

ولحسن الحظ لم أر وجهه فقد خرج من دائرة الضوء ..
إنه يترنح .. يصرخ ... ينهض ثم يلقى بنفسه فى الماء
وهو يردد عبارات لا أفهمها ، بلغة لا أعرفها ... كان يسبح
تجاه الوحش دون أن يعرف ذلك أو يرى شيئا ..
وهنا ..

مذ الوحش عنقه الطويل مدليا رأسه فى الماء الثائر ،
وفتح فمه الذى تملؤه الأنياب .. و ...

انتثر الماء ملوثا بمائل أحمر .. ولمحت يدين تحاولان
إبعاد الفكين العملاقين .. وصرخة هلع .. ثم ... لاشيء ..
وارتفع الرأس فى ثقة مستقرا فوق عنقه .. ثم بدأ هذا
الكابوس الحى يغطس فى الماء ببطء ورزانة ، محدثا
دوامة هائلة حوله وقد أخذت الفقاقيع تتكاثر فوق
السطح .. وثمة أشياء لا أدري كنهها تتأرجح فوق صفحة
الماء . ثم ساد الصمت ..

تركت (ماجى) وجريت إلى الزورق لأرى .. إن كون
(فريزر) لم يأت ولم يفعل شيئا بعد كل هذه الأحداث ،
لا يعنى سوى شيء واحد ... وهناك وجدته ممدودا على قاع
الزورق ، ورأسه ينزف .. لقد ضربه المخبول بشيء على
رأسه لكنه لم يزل حيا .. إذن لقد سيج من الشاطئ إلى

الصخرة ، وضرب (فريزر) بالمجداف من الخلف ، ثم
تسلق الصخرة محاولا منعى ..

همس الصياد فى إنهاك وهو يستند على ذراعى:

.. ... الوحش ...!؟

.. لقد نال قربانه الأخير ورحل ..

ونظرت ناحية البحيرة ، التى عاد سطحها يغطو على
ما فيه من أسرار ..

لقد استحق وحش (نوخ نم) حريته وحياته .. ولن
يستطيع مخلوق أن ينزعهما منه بعدنا ..

★ ★ ★

خاتمة ..

قال السير (جيمس) :

- وهكذا انتهت تلك القصة ، دون أن نقدم للعالم دليلاً على وجود هذا الوحش ، ناهيك عن جثته ... لقد ضاع كل هذا المجهود هباء ..

ثم إنه نظر نحوي في لوم :

- لو أنك لم تلق للبحر بقلادة الغذاء والبوق العاجي ، لاستطعنا تدبير لقاء آخر مع هذا الوحش ، تكون فيه أكثر استعداداً .. لكنني - أصرحك - لست غاضباً منك إلى الحد الذي أحاول أن أبدي به ..

قالت (ماجى) باسمه وقد استعادت لياقتها بعد نوم عميق :

- المشكلة أن (رفعت) اقتحم غرفة نومي بالأمس ، وأجبرني على ...

- على ماذا ..؟!

.. على حرق كل ما دونته عن ترند وأطوال الموجات الخاصة بالبوق ، حتى لا أحاول صنع بوق آخر ... بل إنه مزق الورقة التي رسمنا عليها القلادة اللعينة ..

هز سير (جيمس) رأسه في حيرة ، ونهض ليستعد

للمفر إلى أنبيرة ، واعدًا بأن يأخذنى معه .. قلت لـ (ماجى) وأنا أرتب ثيابى أمام المرأة الموجودة فى قاعة الجلوس :

- هكذا سيظل الوحش نخرًا لاسكتلندا ، يتساءل الناس عن كنهه ، ويفرحون بلقطة رديئة يبدو فيها من تحت الماء .. إنه سيعتاد أكل الأسماك مرة أخرى ، وينسى كل هذا الهراء إلى أن يجد أحدهم البوق مرة أخرى بعد قرون .. وينفخ فيه ..

نظرت إلى (ماجى) وفى عينيها تلك النظرة الثابتة التى أخشاها ، وهمست :

- للأبد ؟!

- ماذا ؟

- قلت إنك باقى معى للأبد .. فلماذا ترحل الآن ؟!

- هل نسيت (ايوان فريزر) ؟!

نظرت إلى فى ذهول .. ثم أخذت تضحك وهى تصفق بكليها :

- إن أنت تغار من (ايوان فريزر) ؟ .. لم أدرك من قبل

ذلك .. ولم أعرف أنك معدوم الثقة بالنفس إلى هذا الحد ..

دع عنك هذه الخزعبلات يا (رفعت) .. لو كنت سأقع فى

غرام كل من يحكى لى قصة مسلية ، فأنا لم أزل طفلة

غريرة.. إنه مسأل لكنه مهرج كبير وجزار.. فهل تظن
أننى بلهاء إلى الدرجة التى لا أفهم فيها هذا؟!

ثم مدت سبابتها إلى أنفى مداعبة :

- أنا لم أعد مراهرة.. إننى.. أقترب من حافة
الأربعين... والمرأة فى سن الأربعين تفهم ما هو الحب..
- لكنى..

- إن المرأة تحب رجلها ليس لأنه أقوى الرجال، ولا
أوسمهم، ولا أغناهم، بل لأنه هو.... هل تفهم هذا؟..
لأنه هو يضعفه وبقوته.. بهزاله وربوه وضيق شرايينه
التاجية.. لأنه هو...، والحب ليس استعراض قوة لكنه
طاقة عطاء دافئة مستمرة.. كيف أنسى نضالنا المشترك
بهذه البساطة؟

ازداد وجومى.. فمنطقها بارع وذكى.. لكنى لم أسترح
بعد.. إلى أن قالت :

- ثم إنك لست معدوم الحيلة إلى هذا الحد.. إنك قد
أنقذتني وأنقذت (ابوان فريزر) نفسه... إنك فككت قيود
حبيبتي كما يفعل (طرزان) مع (جين) فى نهايات
أفلامه... ومن أجلى قائلت..

قلت فى حزن مواصلا كلامها :

- وقتلت...

- لم تقتله لأنه هو الذى رمى بنفسه أمام الوحش.. ثم
إنه لم يترك لك الخيار.. وهذا هو الغارق بينك وبين
(فريزر) الذى كان سيحكى احتراق (أنفريد) بالحمض فى
فخر شديد لو أنه كان مكانك..

ارتجفت تأثراً - إعجاباً بنفسى!! - وكاد البكاء يغلبنى.
إلا أنى تماكنت نفسى، وأخبرتني أننى يجب أن أذهب مرة
أخرى، لأن جذورى هنالك فى مصر.. عملى وأهلى وبيتى
وقبرى... وأننى حين وعدتها بالبقاء معها لم أكن أدري
ما أقول.. وكنت مدفوعاً ببركان عاطفى، يقذف الوعود بلا
حساب..

قربت وجهها من وجهى، وهمست فى حزن شفاف :

- للابد..!!

- ماذا!!

- ستظل تذكرنى.. إنن للابد..؟

- وحتى تحترق النجوم.. وحتى...

وهنا صاحت فى هلع وهى تشير إلى شيء خلف ظهرى :

- (رفعت)!! إن هذه الخلة الحديدية الخاصة بالسير

(آرشيبالد ماكيلوب) تتحرك!!.. أقسم على هذا.. إن هناك

شبحاً فى هذه القاعة!!..

لقد انتهينا من الأخ (نيسى) لكى يبدأ هذا الأخ
(ارشيبالد ماكيلوب) فى تنخيص حياتنا ..!..
قلت فى إحباط وأنا أبتعد عنها ، وأرتب حقيبتى :
- سأعود من أجل هذا الموضوع يوماً ما .. حاولى أن
تحتفظى بهذا الشبح فى حالة جيدة من أجلى !
- فليكن .. هذا وعد ..!

وبعد أسبوع - أو أكثر - عدت لبيتى فى الدقى بالقاهرة
العريضة .. وذكريات جديدة تتخذ أماكنها فى متحف
ذكرياتى ، وفوق رفوف خواطرى ... ظننت أن مشاكلى قد
انتهت ، ولكنى - كالعادة - كنت مخطئاً ، كان هناك كابوس
أخر ينظرنى فى نفس المنزل الذى أسكنه ، ونفس
الطابق .. ولكن هذه قصة أخرى !

د . رفعت إسماعيل

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]